

٩٤٠٩٤٨

البنية الثانية

العدد الأول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الاشتراكات

١٠٠ عن سنة كاملة
٦٠ عن نصف سنة
للطلاب وجنود الجيش
٨٠ عن سنة كاملة
٤٠ عن نصف سنة
٢٥ عن ثلاثة أعداد
يضاف إليها أجرة
البريد خارج القطر

المُسْلِمُونَ

مجلة إسلامية جامعة
تصدر مع غرة كل شهر عربي
سنتها عشرة أعداد

صاحب الامتياز

ورئيس التحرير

شعير رمضان

الإدارة:

٣٢ شارع النيل

بالروضة بالقاهرة

تليفون : ٢٤٤٥٥

نوفمبر سنة ١٩٥٢

ربيع الأول سنة ١٣٧٢

هَذَا الْقُرْآنُ

لفضيلة الأستاذ حسن الهضيبي

المرشد العام للاخوان المسلمين

« إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ »

ولكم في القصص حياة :

قرأت فما قرأت أنه وقعت حادثة قتل في إحدى قرى مديرية الشرقية في زمن محمد علي ، فألف لها محكمة خاصة لتحقيقها والحكم فيها ؛ فوقفت عند هذه الحقيقة أتأملها : حادثة قتل واحدة يؤلف لها الحاكم محكمة خاصة ، واليوم محاكم الجنايات مقامة في عاصمة كل مديرية ، وتفصل في قضايا القتل التي لا تعد بالآحاد بل تعد بالعشرات ؛ وأصبح القضاة لا يفعلون بهذه الحوادث ولا يهتمون بها ، ويحكمون فيها كأنها مسائل عادية لا توجب الفزع ولا الاهتمام . وقل أن يحكم في واحدة منها بالقصاص ؛ بل يحكم في بعضها بعقوبات تافهة لا تشفي الغليل .

وقفت عند هذه الحالة وتأملت فيها ، فوجدت أن حال الناس قد عادت إلى جاهلية مظلمة ؛ فالقاتل لا يقتل ، بل يُتهم غيره لعلم الناس أن المحكمة لا تحكم بالقصاص . فيقدم غير القاتل حتى يحكم عليه ، ويبقى هذا طليقا خارج السجن ليقتص منه أهل القتل . فإذا قتل انتقم أهله من أهل قاتليه ، عُرِف القاتل من بينهم أو لم يعرف . وقد عدد لي

٩٤١٩٤٨

البنية الثانية

العدد الأول

الاشتراكات

١٠٠ عن سنة كاملة
٦٠ عن نصف سنة
للطلاب وجنود الجيش
٨٠ عن سنة كاملة
٤٠ عن نصف سنة
٢٥ عن ثلاثة أعداد
يضاف إليها أجرة
البريد خارج القطر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المُسْلِمُونَ

مجلة إسلامية جامعة
تصدر مع غرة كل شهر عربي
سنتها عشرة أعداد

صاحب الامتياز

ورئيس التحرير

سعيد رمضان

الإدارة:

٣٢ شارع المنيل
الروضة بالقاهرة
تليفون : ٢٤٤٥٥

نوفمبر سنة ١٩٥٢

ربيع الأول سنة ١٣٧٢

هَذَا الْقُرْآنُ

لفضيلة الأستاذ حسن الهضيبي

المرشد العام للاخوان المسلمين

« إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ »

ولكم في الفصا ص حياة :

قرأت فيما قرأت أنه وقعت حادثة قتل في إحدى قرى مديرية الشرقية في زمن محمد علي ، فألف لها محكمة خاصة لتحقيقها والحكم فيها ؛ فوقفت عند هذه الحقيقة تأملها : حادثة قتل واحدة يؤلف لها الحاكم محكمة خاصة . واليوم محاكم الجنايات مقامة في عاصمة كل مديرية ، وتفصل في قضايا القتل التي لا تعد بالآحاد بل تعد بالعشرات ؛ وأصبح القضاة لا يفعلون بهذه الحوادث ولا يهتمون بها ، ويحكمون فيها كأنها مسائل عادية لا توجب الفرع ولا الاهتمام . وقل أن يُحكم في واحدة منها بالقصاص ؛ بل يُحكم في بعضها بعقوبات تافهة لا تشفي الغليل .

وقفت عند هذه الحالة وتأملتُها ، فوجدت أن حال الناس قد عادت إلى جاهلية مظلمة ؛ فالقاتل لا يقتل ، بل يُتهم غيره لعلم الناس أن المحكمة لا تحكم بالقصاص . فيقدم غير القاتل حتى يُحكم عليه ، ويبقى هذا طليقا خارج السجن ليقتص منه أهل القتل . فإذا قتل انتقم أهله من أهل قاتليه ، عُرِف القاتل من بينهم أو لم يعرف . وقد عدد لي

أحد الشهود إذ كنت أحقق بعض القضايا ثلاثاً عشر قتيلاً ترتب قتلهم على قتل رجل لم يحكم على قاتله بالقصاص . وقد حصل في بعض قرى الوجه القبلي أن قتيلاً قُتل فذهب أهله إلى عمدة القرية — وهو كبير عائلة القاتل — وطلبوا منه أن يسلمهم القاتل ليقتلوه ، فكبر عليه ذلك وردم رداً غير جميل ؛ فكان هو أول قتل ، ثم استجر القتل بين العائلتين إلى أن بلغ القتل ثمانية عشر ، وشرع في قتل نحو أربعين ، وأصبح الواحد منهم لا يأمن على نفسه أن يبرز خارج البيت ، وبارت زراعتهم وتجارتهم ، وركبهم الفقر ، وأصبحوا في حالة يرثى لها .

وأمثال ذلك كثير في قرى الريف . وحوادث القتل دائماً في ازدياد .

والذي يتأمل هذه الحال ويتعرف أسبابها يحزم بأن القانون الذي نحكم به قانون وضعي ، لم ينزل به أمر خالق الخلق وهو أعلم بخلقهم ، وأعلم بما يصلحهم وما يفسدهم . ولو اتبعنا ما أمر الله به لكان لنا في ذلك حياة : حياة القاتل الذي يتروى إذا عرف أنه لا محاله مقتول بمن قتل ، وحياة أهله الذين يُنتقم منهم جهلاً وكيداً .

القانون الوضعي يقضى ألا يُقتل القاتل إلا إذا كان القتل مع سبق الإصرار أو الترصد ، ثم هو يبيح مراعاة الظروف المخففة ، فيجيز للحكمة أن تنزل عن عقوبة الإعدام إلى عقوبة الأشغال الشاقة المؤبدة أو المؤقتة ؛ وذلك مراعاة لأحوال الجاني وظروف ارتكابه الجناية اعتباراً بأن القاتل والمقتول ملك الدولة ، وأنها تصلح من شأن القاتل بما يتفق وحاله . ولا يلقي القانون بالآهل لأهل المقتول الذين تلتاع أفئدتهم من رؤية القاتل يعيش على الأرض بعد قتل والدهم أو أخيه أو أحد أقاربهم . ومن هنا كان التخفيف عن القاتل ، ومن هنا كانت النفوس التي لا تطمن إلى هذه الحال فتجري في القاتل وأهله العقاب الذي يشفي غليلها ويرد قلوبها .

إن خالق الخلق هو أعلم بهم ؛ لذلك كان وضعه للعقوبات متفقاً مع أحوال الناس ، جانين ومجنين عليهم ، وما يرضيهم وما يسخطهم . وكان القرآن لذلك جباراً في عقوباته إذا شاء أهل الدم القصاص ، وكان كذلك رءوفاً رحماً إذا عفوا وغفروا ، أو إذا رضوا بأن يأخذوا الدية .

فعقوبة القاتل — بسبق إصرار أو بدونه — هي القتل ، ولأهل القتل ثن يأخذوا الدية — ولهم أن يعفوا ويصفحوا — وهذا يفيد أنه لا يراعى في القصاص إلا مرضاة أهل القتل وبراءة نفوسهم من الضغن الذي يدعو إلى القتل وتجاوز الحد فيه : « ومن قُتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل » فإذا طلبوا

القصاص فقد وجب ، ولا يرضى نفوسهم إلا هذا ، وإذا قبلوا الدية فقد قدروا مصلحتهم . ولعلمهم يجدون الخير كل الخير في أن يفعلوا ذلك إذا كانت بينهم وبين القاتل قرابة ، أو كان للمقتول صبية يستفيدون من الدية أو غير ذلك من الأسباب ، ولهم أن يعفوا عن قتل ، وذلك أقرب للتقوى ، وليس للدولة أن تتدخل فيما بينهم فتقتص من القاتل إذا لم يشاءوا — على ما ذهب إليه بعض الفقهاء — وما دخولها بينهم إذا صفت نفوسهم ولم يعد فيها من دواعي الحفيظة شيء ؟ إن ادعاء أن القاتل والمقتول ملك للدولة بعيد عن المعقول ؛ والدولة في هذه الصورة ليست لإقامة على حفظ الأمن ، فإذا استقامت أموره فلا عليها بعد ذلك أن يكون الناس أجاباً لا أعداء . وصدق الله العظيم :

« وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً ^(١) » .

« وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ^(٢) » .

« مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ، وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ^(٣) » .

« وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ^(٤) » .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى ، فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٍ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ، ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ، فَمَنْ اعْتَدَى بِعَدَاةٍ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ^(٥) » .
اللهم إنا نسألك أن تهدي أولى الأمر منا إلى العودة إلى أحكام كتابك الكريم ، والعمل به ؛ حتى تصلح أحوالنا في الدنيا والآخرة .

(٤) سورة الإسراء — ٣٣ .

(٥) سورة البقرة ١٧٨ ، ١٧٩ .

(١) سورة النساء — ٩٢ .

(٢) . . — ٩٣ .

(٣) « المائدة — ٣٢ .

قصص القرآن

آدم عليه السلام

عرض وتحليل للأستاذ البهي الخولي

(٩)

أفق الروح *

« ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » (١)

هل يستطيع أحد أن يصف لنا الصدق : ما لونه ، وما وزنه ، وما حجمه ، وما طعمه ، وما هيئته ، وما تركيبه ؟ !
إن أحداً لا يستطيع أن يفعل ذلك ؛ لأن الصدق شيء لا لون له ولا طعم ، ولا وزن له ولا حجم ، ولا هيئة له ولا تركيب ! ! ومع ذلك فإن أحداً لا يستطيع أن ينكر أن هذا الصدق قوة فاعلة لها أثرها في واقع الحياة ! ! ولست أعني أثرها الاجتماعي حين يتخذها الناس دستوراً لأقوالهم وأعمالهم ، وإنما أعني أثرها الخاص في نفس صاحبها باعتبارها قوة دافعة تجتاز السدود ، وتحطم القيود ، وتهدر كل اعتبار يعترض سبيلها ، أو يتعارض مع غاياتها وأهدافها ؛ فكم رأينا الصدق يهدر اعتبار الصداقة ويتخطى بصاحبه كل الموانع والعوائق المعنوية ليقول الحق ضد مصلحة صديقه ؛ وكم رأينا يهدر كل اعتبارات البنوة ويحطم موانعها العزيزة ليقول الوالد الحق ضد مصلحة ولده ؛ بل كم رأينا يجتاز بصاحبه كل اعتبار للمصلحة الخاصة ليقول الحق على نفسه وهو غير آسف على ما يفوته من نفع ، ولا وجل مما يلحقه من أذى (٢) . !

* نفتح بهذا البحث النفيس باب قصص القرآن لعام الحمله الثاني ، وهو نظرة عالية في آفاق فسيحة مشرقة تلقى ضوءاً صافياً على كل ما كتبه أستاذنا الجليل من قبل عن آدم عليه السلام ، وعلى الطريق الطويل الذي سيسير فضيلته بنا فيه مع أنبياء الله ورسله .

(١) الإسراء — ٨٥ .

(٢) لعل في هذا ما ينقض المذهب الخاسر الذي يقول إن تصرفات المرء لا تتأثر إلا بالعوامل المادية القائمة على ما يبتغى لنفسه من نفع اقتصادي خاص دون دخال لأي اعتبار روحي يناقض المصلحة الخاصة .

فالصدق — إذاً — قوة كامنة في النفس لها أثرها الواقعي ، وهو مثل نضربه للعوامل الروحية التي لها آثارها الملموسة في الحياة دون أن ترى بالعين ، أو تلمس باليد ، أو تدرك بحاسة من الحواس ؛ فإذا تقرر هذا سهل علينا أن ندرك شعاعاً من أشعة معنى قوله سبحانه : « ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » . . . ولا أقول إن الروح كالصدق ، أو إن الصدق كالروح ، وإنما أقول إنهما يلتقيان في أن لكل منهما وجوده الواقعي الذي لا ينكر ، دون أن يكون له مادة تتألف منها أجزاؤه !

وقد نفخ الله سبحانه فينا سرّاً من روحه ، فكان الصدق والأمانة والشجاعة ونحوها من صفات الخير ثمرة من ثماره . . . ومحاولة الكشف عن حقيقة هذا السر ضرب من الجهود الناهبة سدى ما دامت حواسنا العادية هي سبيلنا الوحيد لما نحصل من علم ومعرفة ؛ وحسبنا في مقامنا هذا أن نتكلم عنه باعتباره أفقاً من آفاق الإنسان ، وموهبة من مواهبه الجليلة لها أكبر الأثر فيما أسند إليه في هذه الأرض .

ومن الملاحظ أن الله سبحانه لم يقل في الملائكة أو الجن إنه نفخ فيهم من روحه ، بل جعل ذلك خصوصية للإنسان وحده ؛ فلماذا أمدّه الله سبحانه بها ؟

هل وهبها له ليعبده بها ؟

إن العبادة ليست هي العلة التي أوجبت اختصاص الإنسان بتلك الخصوصية ، فالملائكة يعبدونه سبحانه دون حاجة إليها ، وكذلك الجن . . . وإنما تظهر العلة إذا لاحظنا — إلى جانب الملاحظة السابقة — أن الله جلّ شأنه لم يقل في الجن ولا في الملائكة إنه جاعلهم في الأرض خلفاء ، بل خص الإنسان وحده بذلك ، فمن خلال الارتباط الوثيق بين خصوصية الروح وخصوصية الخلافة تنقذ العلة الصحيحة ، ويسوغ لنا أن نقول إن تلك الروح هي الملكة الربانية ، أو الجهاز الإلهي — والله المثل الأعلى — الذي جهز به الإنسان ليؤدي به كثيراً من حقوق ما أسند إليه .

إن الخلافة ميدانها الأرض ، وهي خلافة عن الله سبحانه ، فلزم أن يكون للخليفة مواهب تناسب طبيعة العمل الأرضي البحت ، وأخرى ذات روح إلهية لا تمت إلى الأرض بصلة ، ولا تستفيد منطقتها من العمل في الأرض ، بل من نور الله وفضله سبحانه .

ولقد قلنا فيما سبق إن تلك الروح تحي في كيان الإنسان كائناً روحياً له حياة تخالف طبيعة حياة البدن... فإذا ساغ لنا أن نقول إن للرجل المؤمن كيانين : كيان مادي هو البدن ، وكيان معنوي هو الكائن الروحي ، وأن السر الذي يحيا به البدن غير السر الذي يحيا به الكائن الروحي ، إذا ساغ ذلك فإن لنا أن نلتبس آثار الحياة ومظاهرها في ذلك الكائن المعنوي ، كما نلتبسها في الكائن المادي ، فإن للحياة في كل شيء حالت به آثار ومظاهر !

وإن من آثار الحياة في البدن الحركة أو القدرة على الحركة وإنجاز الأعمال ؛ فهو الذي يحث الأرض ويتعهد الزرع ، ويطرق الحديد ، ويتصرف بجوارحه فيما لهذه الأرض من ثروات ، فهل للكائن الروحي من أثر في محيطه المعنوي يقابل أثر البدن في محيطه المادي ؟ . نعم له في محيطه المعنوي آثاره الروحية الباهرة ، فالحب والإخاء ، والوحدة والتعاون على البر والتقوى ، والصدق والمواساة والشجاعة في الحق ، ذلك وأمثاله من الصفات التي يثمرها الإيمان في قلوب المؤمنين ، إنما هو الأثر الواقعي لنشاط الحياة الروحية في الكائن المعنوي على ما أسلفنا في غير موضع . . . بل إن سر تلك الموهبة يتعدى الميدان الروحي إلى الميدان الحسي حيث يمد صاحبه في أعماله بطاقات من القوة — من مصدر غير منظور — يهون بها العسير ، ويقل في هماتها الكثير ، ويمحي بها في ميدانه كل مشقة : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا » ولقد شكت فاطمة رضي الله عنها لأبيها عليه الصلاة والسلام ما تجد من مشقة الرحاحين تديرها لطحن طعامها وطعام بنيتها ، فعلمها كلمات من ذكر الله سبحانه تقولها كلما أمست ، قالت فاطمة فلم أجد بعد ذلك ما كنت أجد من مشقة أو أذى .

هذا ، ومن آثار الحياة في البدن أن تهب له السمع والبصر وسائر الحواس ، وكذلك حياة هذا الكائن الروحي تهب له سمعاً وبصراً ، ولكنه سمع آخر ، وبصر على غير ما يعهد الناس من ابصار . . . فالسمع في البدن آله الأذن ، والبصر آله العين أما السمع والبصر الآخريان فمركزهما جميعاً القلب ولا آله لهما . . . والسمع والبصر الظاهران يتعلقان بإدراك الصورة الظاهرة من كل شيء أو كل صوت ؛ أما السمع الروحي والبصر القلبي فمن الحواس الباطنة التي تتعلق بإدراك العبرة في كل قول تسمعه وفي كل شيء تراه ؛ والعبرة رحيق يحي النفوس ، ويلين القلوب ، لأنه سر الله في كل شيء ، والله في كل شيء ، سر لا يدرك إلا بتلك الحواس .

فإذا لم يكن البدن يسمع أو يبصر فهو إما ميت ، وإما أصم أو أعمى ؛ وكذلك شأن هذا الكائن الروحي قد يعتريه الصمم أو العمى ، إما لآفة أدركته ، أو لموت حل به ، وفي أمثال هؤلاء جاء قوله سبحانه : « ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ^(١) » ، « وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ^(٢) » .

وقد اعتبر الله سبحانه — وهو الاعتبار الحق — أن هذا الكائن هو كل شيء في الإنسان ، وأن نظر هذا الكائن هو النظر الحق ، فإذا أصابته آفة واحتجب عنه نور العبرة فهو أعمى ، ولن ينفعه حينئذ أن يكون بصره العادي أقوى الأبصار جميعاً : « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » . . . وكذلك سمع هذا الكائن هو السمع الحق ؛ أما الأذن الأخرى التي ترى أمثالها مركباً على رأس كل دابة فلا اعتبار لها في تدبر الهدى ، وقد أسقطها الله سبحانه من حساب هذا الباب ، ولم يتحدث لها ذكر آ فيه كأنها شيء غير موجود ؛ وإنك لتقرأ ما جاء في كلامه عن الهدى ، فلا ترى السمع إلا سمع القلب وحده ، ولا ترى الحياة إلا حياة هذا الكائن المعنوي ؛ وبدونهما فلا سمع للمرء ولا حياة ، ولا استجابة لما يتردد حوله من كلم طيب : « إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يسعدهم الله ثم إليه يرجعون ^(٣) » .

والإنسان منطق قائم على ما بينه وبين هذا الكون المادي من علاقات ومشاهدات وتجارب . . . أو قل : إن في الإنسان قوة عاقلة فيها سر التجاوب مع الأشياء المائلة لحواسنا في هذا الكون ، فنحن نرى شخوصها ، ونسمع أصواتها ، ونشم روائحها ونذوق طعومها ، ونميز ملمسها . . . وتقوم تلك القوة العاقلة — تبعاً لتوالي الزمن ومرور التجارب — بإدراك تلك المجموعات والمرئيات والمشعومات والمطعمومات والملموسات ، وعلاقة بعضها ببعض ، وعلى أساس ذلك كله تقوم خبرة العقل وأحكامه على الأشياء ، فيحكم — مثلاً — بأن الكل أكبر من الجزء ، وأن الواحد نصف الاثنين ، وأن النقيضين لا يجتمعان ، ويحكم بأن الحرارة تعدد بعض الأجسام ، وأن الجسم إذا طفا على وجه الماء فإنه يكون مدفوعاً من أسفل إلى أعلى بقوة تساوى وزن الماء المزاح . . الخ

أقول : للإنسان قوة مدركة يقع إدراكها على أشياء هذا الكون المادى ، وله مع ذلك قوة مدركة أخرى تهبط له موهبته الروحية الجليلة ، ولا تختص تلك الموهبة بإدراك صور الأشياء الحسية فى العالم المادى ، بل بإدراك الأمور المعنوية التى ليست من طبيعة المادة . . . فالخير والشر . . . والحسن والقبيح . . . والمعروف والمنكر . . . والفضيلة والذيلة . . . والحق والباطل ، كل أولئك — وما مثلها — أمور معنوية لا يدرك لها الحس صورة ولا كنهها ، بل يدركها ذلك « العقل الروحى » الذى تهبط له موهبته الروحية . . . وقد يرى الرجل المؤمن — أى الرجل الراقى فى إنسانيته — منظرًا من المناظر ، فيحكم بعقله المنطقى بأن هذا الشئ طويل وهذا الآخر قصير ، وذلك اللون أبيض وذلك الآخر أسمر ، ويدرك موقع كل شئ بالنسبة للآخر ، فهذا فوق وهذا تحت ، وهذا إلى اليمين وذلك إلى الشمال إلى آخر ما هو من اختصاص العقل القائم على أوضاع المسادة وخواصها . . . وفى هذا المنظر نفسه قد يرى الرجل المؤمن بعقله الروحى منكرًا يجب إزالته أو شرًا يقتضى منه . . . وقد يرى فضيلة تبتسم لها سريره أو حقًا لا يملك نفسه من مؤازرته وتأنيده ، أو غير ذلك من الأمور المعنوية التى لا تقدر قيمتها بما لها من حجم أو سعر ، وإنما تقدر بموقعها من المثل العليا .

والإنسان يسعى لجلب رزقه العادى ، ويستعين فى ذلك بعقله الذى يدرك خواص الأشياء وسبل الانتفاع بها . . . وله إلى جانب هذا الزاد زاد آخر لا بد منه حياة كائنة الروحى ؛ وسبيل ذلك الزاد هو العقل الروحى الذى يسعى فى آفاق المعنويات وينتقى لصاحبه ما فى ذراها العلام من أطايب الحقائق التى تعين على ذكر الله وحسن معرفته وخشيته ، وهو سبحانه يقول : « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ، واتقون يا أولى الألباب (١) » وقد نعى سبحانه على أقوام إعرأضهم عن الحق وما لهم فيه من رزق طيب : « إنه لقرآن كريم ، فى كتاب مكنون ، لا يمسه إلا المطهرون ، تنزيل من رب العالمين ، أفبهذا الحديث أنتم مدهنون ، وتجمعون رزقكم أنكم تكذبون ؟ » (٢). ولقد كان عمر يحب الحياة لا ليملا معدته بمتاعها بل ليسعد معدته الروحية بما ينتقى لها من أطايب الزاد ويقول : « لولا ثلاث لما أحببت البقاء : أن أدبر الخيل لأمة محمد تغزو بها فى

سبيل الله ، وأن أ كابد التهجّد في جوف الليل ، وأن أجالس أقواما ينتقون أطايب القول كما ينتقى الناس أطايب الثمر (١) »

والعقل الأول يكسب علمه وأحكامه عن طريق الحواس المتصلة بعالم المادة ؛ ولولا تلك الحواس لظل المرء أعمى لا يبصر ، أصم لا يسمع ، ومعتلا لا يشم ولا يذوق ولا يميز المدوسات ، ولظلت خزانة عقله — تبعاً لذلك — خالية من التجارب والمعارف والعلوم ؛ والله سبحانه يقرر تلك الحقيقة إذ يقول : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » (٢) .

والعقل الروحي يكسب علمه وأحكامه عن طريق الحواس الباطنة المركزة في القلب من سمع وبصر وشم وغيره . . . وعلمه هو العلم الحق . . وهو غير العلم الأول .

العلم الأول منطق آلى جاف خالٍ من العاطفة ، لأن أحكامه قائمة على ملاحظة ظواهر الماديات البحتة . . أما هذا العلم فأحكامه دائرية حول ملاحظة المعنويات وإدراك الجوانب الروحية في كل ما حولنا . . ليس منطقاً خالصاً ، ولا وجداناً صرفاً . . فيه من المنطق إدراكه لقيم المعنويات وتمييزه بين الحق والباطل ، والخير والشر ، والحلال والحرام . . وفيه من الوجدان حبه للحق والغيرة على حرمة ؛ وبغضه للباطل والثورة على معالمة . . وذلك هو العلم الحق ، لأنه مجموع العبر التي نستخلصها من كل شيء ، وتزيدنا معرفة بالله سبحانه . . فإذا كان هذا العلم قائماً على المنطق المعنوي وحده بلا وجدان ، فهو أحكام ميتة لا تنهض صاحبها إلى فضيلة ، بل لعل صاحبها يكون من أزهد الناس في الفضائل على نحو ما نرى في حياتنا العامة من جمهرة المثقفين ثقافة نظرية . . وإذا كان عاطفة بلا منطق ، أى بلا فقه يميز لمواضع الخير والشر ، والضرر والنفع ؛ فهو قوة ضائعة ، تضر أكثر مما تنفع ، وقد تضر صاحبها أول ما تضر ، ولأمر ما قال رسول الله صلى عليه وسلم : « فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد » .

وهذه حقائق تحتاج إلى بيان وتفصيل ، ولكننا لسنا بصدد البيان والتفصيل ، بل بصدد بيان الملامح أو المعالم التي نعرف بها أن للسر الروحي في الإنسان آثاراً واقعية تدل عليه ، وملكات وحواس تميز خصائصه وتشير إلى وظيفته . . .

وقد حرصنا على المقارنة بين الكائن المادى والكائن الروحى ، والمقابلة بين ما لكل منهما من سمع وبصر وحواس ، وعقل وعلم ، وقدرة على العمل وإحداث الأثر الواقعى ، ليكون ذلك بمثابة نقطة الارتكاز التى نأوى إليها ونحن نرتاد هذا الأفق الخطير من آفاق الإنسان ..

فللإنسان وجودان : وجود مادى يسمى به فى عالم المادة ، ووجود روحى يسمى به فى السماء .. ولا نقصد بالسماء السكواكب والنجوم وذلك اللون الأزرق الذى يعلونا ، وإنما نقصد الأفق الخفى الذى يعلو عالمنا هذا المادى ، ونسميه ما وراء المادة ، أو ما وراء الطبيعة ، ونحسب أنه هو المراد حين يذكر فى مثل قوله سبحانه : « وفى السماء رزقكم وما توعدون ^(١) » فتلك السماء ، أو ذلك الأفق الأعلى ، الذى أعد الله لنا فيه أرزاقنا وكل ما وعدنا ، هو المجال الروحى الذى يسمى فيه الإنسان بوجوده الروحى ومواهبه الروحية .

ولقد تكلمنا بعض الشيء عن وجودنا الروحى وما له من مواهب وملكات ، وعن وجودنا المادى وما له من مواهب وملكات ؛ وتبين أنه لا سبيل إلى إدراك الوجود الأول بالحواس العادية كما يدرك الوجود الآخر ، فذلك غير هذا ... وكذلك الشأن إذا رحنا نقابل بين المجال الذى يسمى فيه الوجود المادى ، والمجال الذى يسمى فيه الوجود الروحى ... فالمجال الأول مقدس بأقيسة الزمان والمكان ، مضبوط بالشواهد التى تحصى آفاقه وتميز معالمه ؛ والسعى فيه مقدور بخطوات الأرجل ، وحركات الأيدي ، وما ينطق اللسان من كلمة ... أما المجال الآخر فليس له ضوابط من زمان أو مكان ؛ فالصدق الذى كنا نتكلم عنه منذ حين — مثلاً — لا يسوغ فى الدهن أن نقسمه إلى أربع وعشرين ساعة ، ولا إلى ليل ونهار ، ولا إلى شروق وغروب ، ولا أن نقول إن فلانا قطع اليوم ثلاثة فراسخ من الصدق ، وفلان قطع أربعة ؛ وكذلك عالمنا هذا الروحى لا زمان فيه ولا مكان ، والسعى فيه مقدور بإشرقة الإخلاص فى القلب لا بحركة يحدتها اللسان أو القدم أو اليد ! !

ولا نحسب إنساناً إلا وقد جرب هذه الإشرقة التى يلتفت فيها القلب بإخلاص إلى الله فى لحظة من لحظات الصفاء يعلن بها إلى مولاه — من غير صوت ولا حرف — أنه محتاج إلى فضله مفتقر إلى رحمته ؛ تلك الإشرقة التى تحدث بالقلب فإذا هو هين لين منكسر لله ، ليست زماناً ولا مكاناً ولا حركة ، وإنما هى سر خفى يمثل طرفاً من سعى الإنسان فى مجاله الروحى ! !

سر ليس له إشراق المصاييح ، وإن كان نور حقيقته أبهر من وضع الشمس ..
وليس له خطو يقطع به المسافات ، وإن كان يطوى ما بين الأرض والسماء في أقل
من طرفة العين ... وليس له بيان مسموع ، وإن كان له حنين حول عرش الله يفاخر
الله به الملائكة ... وليس له يد يسخر بها ما يريد ، وإن كان يقبض على سنن الله
فإذا هي أطوع له من البنان ، وأقرب إليه بالإجابة من كل ما تحتويه اليد ، « وقال ربكم
ادعوني أستجب لكم^(١) » ، « وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي
إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون^(٢) » .
بهذا السري يسعى الإنسان في السماء ، أو فيما وراء الطبيعة لتحصيل ما له عند الله
من رزق ... !

(يتبع)

يا حبيب الله !

ألجموا نزوات العواطف بنظرات العقول ، وأنثروا أشعة العقول بلهب
العواطف ؛ وألزموا الخيال صدق الحقيقة والواقع ؛ واكتشفوا الحقائق في
أضواء الخيال الزاهية البراقة ؛ ولا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ، ولا
تصادموا نواميس الكون فإنها غلبة ، ولكن غالبوها واستخدموها وحولوا
تيارها واستعينوا ببعضها على بعض ، وترقبوا ساعة النصر وما هي منكم ببعيد .

مصنع البنا

مِنْ عِلْمِ السُّنَّةِ

فِي الْبَيْعِ وَالْكَسْبِ وَالْمَعَاشِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِالتِّجَارَةِ

لَفَضِيلَةِ الْأَسْتَاذِ الشَّيْخِ أَحْمَدَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْبَنَّا

(٤)

بَابُ مَا جَاءَ فِي كَسْبِ الْحِجَامِ وَالْإِبْرَاءِ وَالْفَصَابِ وَالصَّائِغِ وَغَيْرِ ذَلِكَ

١ - عَنْ رَافِعِ بْنِ رِفَاعَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : « نَهَاَنَا نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَنْ كَسْبِ الْحِجَامِ ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَطْعِمَهُ نَوَاضِحَنَا ^(١) ، وَنَهَاَنَا عَنْ كَسْبِ الْإِمَاءِ إِلَّا مَا عَمِلَتْ يَدَاهَا ، وَقَالَ هَكَذَا بِأَصَابِعِهِ نَحْوُ الْخَبْزِ ^(٢) وَالْفَزْلِ وَالنَّفْسِ »

٢ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : « نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَنْ كَسْبِ الْإِمَاءِ ^(٣) . »

٣ - وَعَنْهُ أَيْضًا قَالَ : « نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَنْ كَسْبِ الْحِجَامِ ، وَكَسْبِ الْبَغْيِ ، وَثَمَنِ الْكَلْبِ ، قَالَ وَعَسَبُ الْفَحْلِ ^(٤) » (وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ هَذِهِ مِنْ كَيْسَى ^(٥)) .

٤ - عَنْ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « شَرُّ الْكَسْبِ ثَمَنُ الْكَلْبِ ، وَكَسْبُ الْحِجَامِ ، وَمَهْرُ الْبَغْيِ ^(٦) » .

٥ - وَعَنْهُ أَيْضًا قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : « ثَمَنُ الْكَلْبِ خَبِيثٌ ، وَمَهْرُ الْبَغْيِ خَبِيثٌ ، وَكَسْبُ الْحِجَامِ خَبِيثٌ » .

(١) جمع ناضح وهو اسم للبعير والبقرة التي ينضح عليها الماء من البئر أو النهر .

(٢) عجن العجين وخبزه .

(٣) يعني البنايا على نحو ما كانوا في الجاهلية .

(٤) عسب الفحل : ماؤه ، والفحل هو الذكر في كل حيوان .

(٥) يريد أن (عسب الفحل) لم تكن في هذا الحديث ، وإنما أتى بها زيادة من رواية أخرى

(٦) ما تأخذه على الزنا ، سماه مهرا توسعا .

- ٦ — عن يحيى بن أبي سليم قال : سمعت عباية بن رفاع بن رافع بن خديج يحدث أن جدّه حين مات ترك جارية وناضجاً وغلماً حجّاماً وأرضاً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الجارية فنهى عن كسبها ، قال شعبة مخافة أن تبغى ، وقال ما أصاب الحجّام فاعلفه الناضج ، وقال في الأرض ازرعها أو ذرها .
- ٧ — عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سُئل عن كسب الحجّام فقال : « اعلفه ناضجك » .
- ٨ — عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « قد أعطيت خالتي (١) غلاماً وأنا أرجو أن يبارك الله لها فيه ، وقد نهيتها أن تجعله حجّاماً أو قصّاباً (٢) أو صائغاً » .
- ٩ — وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « إن أكذب الناس الصّواغون والنصبّاغون (٣) »
- ١٠ — وعنه أيضاً عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « أكذب الناس الصّناع » .
- ١١ — عن حرام بن ساعدة بن محيصة بن مسعود قال : كان له (٤) غلام حجّام يقال له أبو طيبة يكسب كسباً كثيراً ، فلما نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن كسب الحجّام استرخس (٥) رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيه فأبى ، فلم يزل يكلمه فيه ويذكر له الحاجة حتى قال له : « لتلق كسبه في بطن ناضحك »
- ١٢ — عن محمد بن سهل بن أبي حاتم عن محيصة بن مسعود الأنصارى رضى الله عنه أنه كان له غلام حجّام يقال له نافع (٦) أبو طيبة فانطلق إلى رسول الله
-
- (١) هي فاخته بنت عمر ، كما صرح بذلك في حديث جابر عند الطبراني .
- (٢) أى جزاراً وقد نهى عن الجزارة والحجامة احتراساً من النجاسة .
- (٣) الصواغون : صاغة الخلى ؛ والصباغون : صباغو الثياب وهم يظلمون بالمواعيد الكاذبة .
- (٤) أى المحيصة بن مسعود .
- (٥) أى طلب من رسول الله أن يرخص له في الانتفاع بكسب غلامه الحجّام .
- (٦) في هذه الرواية صرح باسم الغلام .

صلى الله عليه وآله وسلم يسأله عن خَرَّاجِهِ (٧) ، فقال : « لا تقربه » ، فَرَدَّه على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال . « اعلف به الناضح ، واجعله في كِرْشِهِ »

١٣ — عن عَنُون بن أَبِي مُجَحِّفَةَ عن أَبِيهِ (رضي الله عنه) أنه اشترى غلاماً حجّاماً ، فأمر بِمَحَاجِمِهِ فَكَسَّرَتْ ، فقلت له : أتكسرها قال : نعم ؛ إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نهى عن ثمن الدِّم (١) ، وثن الكلب ، وكسب البَغْيِ ، وَلَعَنَ آكلَ الرِّبَا وَمُوكِلَهُ (٢) والواشمة والمستوشمة ، ولعن المَصَوِّرَ (٣)

١٤ — عن علي رضي الله عنه قال : احتجَمَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فأمرني أن أعْطِيَ الحِجَّامَ (٤) أَجْرَهُ .

من الحكم

١ — « من علامات الفجح في النهايات الرجوع إلى الله تعالى في البدايات » .

٢ — « تشوّفك إلى ما بطنَ فيك من العيوب خير من تشوّفك إلى ما حجبَ

عنك من العيوب » .

ابن عطاء

(٧) أى ما يتقاضاه في الأجرة على عمله .

(١) أى أجرة الحجامة وأطلق عليه الثمن تجوزاً .

(٢) أى الآخذ والمعطى .

(٣) أى الذى يصور الحيوان لا الشجر فإن الفتنة فيه أعظم .

(٤) سيأتى بيان أجرة الحجام مفصلاً في كتاب الإجارة .

غُرْبَةُ الْإِسْلَامِ

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبى زهرة

أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة القاهرة

١ — روى مسلم عن أبى هريرة مرفوعاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « بدأ الإسلام غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء » ، وفى رواية الترمذى : « فطوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس » ولعل هذا الحديث عندما تحدث به النبي صلى الله عليه وسلم بين صحابته وقع منهم موقع الغربة ؛ لأن شأن الإسلام كان فى نماء ، وكانت شمسهِ فى إشراق ، وقد امتلأت قلوبهم بنوره ، واستأنست نفوسهم بهدايته ، وأشربوا حبه . والإنسان يقبل من الأمور ويدرك منها ماله مجاوبة من نفسه ومشاركة من وجدانه وحسه ، ولكنهم مع استغرابهم صدقوه وآمنوا به ؛ لأنه نبوءة من لا ينطق عن الهوى وهو وحى يوحى ، فهو كلام أصدق الصادقين ، وخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم .

ولكن ما كان غريباً على قلوب الصحابة وإن كان مصداقاً ، نراه نحن اليوم ونحس به ، فترى بأعيننا قومنا يجهرون بالإسلام ولا يعملون به ، ويقولون إنهم يؤمنون بالكتاب ولا يقيمون شريعته ، ويقرون بالسنة وصدق النبي ولكن يحافونها بأعمالهم ؛ فالحدود معطلة ، والربا مأكول ، والقمار قد تغشى الجماعة الإسلامية حتى صار أمراً مألوفاً ، والشراب الحرام لم يبق منكراً بل صار معروفاً ، وحق الفقير فى مال الغنى ضائع ؛ ثم شاع الظلم وضعف صوت العدل ، حتى لقد عد المنادى به ثائراً أو هاجراً للجماعة ، وكأن الاجتماع لا يكون إلا على ظلم ، ولا يكون على العدل ، ولقد أصبحت كلمة الحق أمام سلطان جائر خروجا وتمرداً كأن إقرار الظلم هو الطاعة ، والمناداة بالعدل هى الخروج على الجماعة ؛

بل لقد هُزِّعت العبادات ، فأصبحت الصلاة عادة لا عبادة — إن كانوا يصلون — وانتهكت حرمت رمضان جهاراً نهاراً ، وفقد الحج معناه ؛ ولم يدرك الحجيج له ومغزاه .

٢ — ولم يقتصر الأمر على هجر الدين ومعانيه هجراً غير جميل ، فلم يترك الناس أوامره ونواهيه الصريحة فقط ، بل أخذوا يتهمون على حقائقه ، ويفتنون أنفسهم

والناس في دقائقه ، فهم يعطون الزكاة ويلتمسون العاذر في تركها ، ويعطون الحدود ويلتمسون أوهم الأسباب لتعطيلها ، ويقرون الظلم ويدعون إلى تأييد الظالمين ، ويدعون أن ذلك من طاعة أولياء الأمر ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، وهكذا ضلت الأفهام ، وفنت العقول ، وجاهر الناس بالعصيان ، ووجد من يسوغه لهم ، أو على الأقل يسهله عليهم ، ثم وجدنا أولئك الذين أحاطت بهم الخطايا من كل جانب يتأولون نصوص القرآن ليبرروا بعض الآثام ، فوجدنا بعض رجال المال ومعهم بعض المتفهمين ، أو المتفهمين يؤولون آيات الربا بغير حجة من السنة ، ولا سلطان من الدين ليحلوا الربا القاسم . . . وهكذا لم يقتصروا على الترك بل تعدوا الحدود ، وتجاوزوا أقدارهم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

إن هذه هي الفتنة حقاً ، ولقد روى عن عبد الله بن مسعود أنه قال : « كيف أنتم إذا لبتكم فتنة ربو فيها الصغير ويهرم فيها الكبير ، وتؤخذ سنة يجرى الناس عليها ، فإذا غير منها شيء قيل تركت سنة » قال ابن مسعود فقال له قائل : متى ذلك يا أبا عبد الرحمن ، قال : إذا كثرت قراؤكم ، وقل فقهاؤكم ، وكثرت أموالكم ، وقل أمتاؤكم ، والتست الدنيا بعمل الآخرة ، وتُفْلَقْهُ لغير الدين » .

هذا قول ذلك الصحابي الكريم في وقت ابتدأ فيه بعض قتن المسلمين ، وكأنه يصف عصرنا ، وقد طمَّ سِيلُ الشر ، وأصبحت الفتنة عن الدين سنة ، وصاروا يتأولون لكل عصيان .

٣ — ولو قيل إننا في عصر جاهلي لكان القول صدقاً ، ولو قيل إننا لا نأخذ من الإسلام إلا اسمه لكان القول صدقاً ، ولكن كتاب الله بين ظهرانينا نقرأه صباح مساء ، ونستمع إلى قراءته في كل مكان وزمان ؛ فهل لنا أن نلبي النداء ونجيب الدعاء ؟

إن الدعوة إلى الرجوع إلى هدى القرآن تحتاج إلى أولى العزم من الرجال ، وأهل الإيمان الذين يتقدمون الصفوف ، وإن الله سبحانه وتعالى من رحمته بعباده ، وحياطته لدينه ، وحفظه لكتابه يبعث في كل جيل من يرشد ويهدي ، ويدعو إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ فقد روى الإمام أحمد في مسنده : أن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة رجلاً يبجد لها أمر دينها : أي يعود به إلى حياته الأولى وهو غض قوي ، فيصير جديداً على الناس بعد أن ضلوا ، وحسبوا الفتنة

سنة ، والآثام عرفاً معروفاً ، وفرضوها على القرآن لتحكم عليه ، لا يحكم عليها ؛ ولقد قال على بن أبي طالب رضى الله عنه : « لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة ظاهرة مشهوراً ، أو خفياً مغموراً ؛ حتى لا تضيع بينات الله » .

ولقد وجدنا والحمد لله في عصرنا دعاة قد احتسبوا أنفسهم لله ، ودعوا بدعاية الله وتنادوا بحكم القرآن وشريعة الديان ؛ ولكنهم وجدوا قوماً أركسهم المعاصي ، ودرّنت قلوبهم الخطايا ، وهجروا دين الله عملاً ، وإن ظنوا أنهم مؤمنون عقلاً ؛ وقد تكاثفت الأزمان على أحوالهم ، حتى ظنوا ما هم عليه ديناً ، أو يسوغه الدين ، ونخشى أن نقول إنهم كانوا في ادعائهم الأخذ بشريعة خاتم النبيين كقول مشركي العرب في إبان النزول : إنهم على دين إبراهيم أبي النبيين .

٤ — مهمة الدعاة إذن ليست ميسرة ولا سهلة ، ولكن هل نقنط من روح الله إنه كلما عظم الشرك كانت المهمة على الدعاة أعظم ، وكلما شاعت الرذيلة تضاعفت المهم لمقاومتها ، وكان العبء على الدعاة جسيماً جليلاً خطيراً ، وأول واجب عليهم أن يعرفوا من أين يأتون إلى القلوب التي قست في المعاصي ، ودرّنتها الشر ، واستعرأت مخالفة كتاب الله ؛ حتى ظنت أن ما هي عليه هو الدين ، وحسبوا الفتنة هي السنة كما قال ابن مسعود ؛ فإن معرفة القلوب المريضة وموضع دائها ، ثم معرفة أنسب دواء لها ، هو مهمة الداعي الرشيد القوى الأمين ؛ وإن الرشيد كالطبيب عليه أن يعرف حال مريضه في كل أحواله وعامة أطواره فيكون الدواء نافعا ، والعلاج ناجما ؛ وليجتث الداء من أصله ؛ ومرضى القلوب كمرضى الأجسام وانحراف العقول كانحراف الأجساد ؛ ولا بد من التدرج في العلاج ، وتسهيل قبول الدواء ومزجه بما يسوّغه ؛ حتى يسّغه المريض . ورحم الله على بن أبي طالب فقد كان يقول فيما ينبغي اتباعه عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : « إن للقلوب شهوات وإقبالا وإدباراً ، فأتوها من قبل شهواتها وإقبالها ؛ فإن القلب إذا أكره عمى »

٥ — وإن من أعظم الدواء الناجع في معالجة النفوس الشاردة والأهواء المستحكة التدرج معهم في العمل ، وتبعية الكبائر كبيرة كبيرة ، حتى تجتث كلها من أصلها ، فالأفراد يمكن الداعي من اقتناص أجزاء الشر واحدة واحدة ، حتى يقضى عليها كلها في نهاية المعركة ، وإن مثل الداعي المرشد عند محاربة الرذائل كمثل قائد جيش المؤمنين ، قد تألبت عليه كل جيوش الرذيلة من كل جانب ؛ فإن حاربها جميعاً في كل الميادين ،

توزعت الميادينُ قواه ، وبددتها ، أو انتصرت إحداها عليه ؛ وحسب الرذيلة أن تنتصر في إحدى ميادينها لتكتسب في كل الميادين .

إن الدعوة والإرشاد تحتاج إلى سياسة فاضلة ، كما تحتاج الأمم في أمورها إلى سياسة فاضلة ، تلين في جانب وتشتد في جانب ، حتى تقبض على الأمر كله فتسوسه بسياسة الله العلى القدير ؛ أو ببساطة أدق تنفذ بسهام الحق في جانب ، وتغضى مؤقتاً في جانب آخر حتى تكون الكلمة العليا لله ولرسوله في كل النواحي ، وفي كل شعب الحياة .

٦ — وقد يقول قائل يا هذا أو تريد أن يتخذ كتاب الله عظيم . يعمل ببعضه ويترك بعضه ، وأن نكون كمن يؤمن ببعضه ويكفر ببعضه ! ! معاذ الله أن نكون من ذلك الفريق ! إنا نؤمن بالكتاب كله ، وبالدين كله ، ونودُّ بجذع الأنوف أن تكون الكلمة كلها لله سبحانه ولدينه الخفيف ، وأن تكون السيطرة كلها لدين رب العالمين ، ولكن وجدنا أن سياسة الدعوة في ذلك العصر الذي صارت البدعة فيه سنة توجب أن نأخذ الناس بشيء من الرفق القوى بأن نتجه إلى أقبح الشرور واحداً واحداً فنحاربها ، ثم ننزل إلى من دونها حتى نجيء على الفساد كله ؛ وليس معنى ذلك أن نقول عن المتروك إلى حينه إنه خير ، بل نقول دائماً إنه شر ، ونعلن حكم الله في كل شيء ، وإلا كنا كاتمين لشرع الله مخفين له ! إنما نبتدىء عند الدعوة العملية بالتدرج من القبيح الواضح القبيح إلى من دونه ، حتى يكون أمر الله سائداً قائماً في الجميع ؛ وإن الأمر ليس فيه خطر على الدين ، فالفضائل يستحسنك بعضها بعراً بعض ، والرذائل تنفرع مخاريفها بعضها على بعض ؛ فمن أخذ بحبل فضيلة أخذاً قوياً اجتذبتها جميعاً ، ومن سد باب رذيلة سداً محكماً فقد قطع السبيل على كثير من الرذائل ؛ ولنا في ذلك القول مبتدعين ، ولكننا متبعون لهدى محمد في موعظة الناس وإرشادهم ، فقد روى أن رجلاً كان يزني ويسرق ويشرب الخمر ، فجاء يشكو إلى الرسول حاله ، ويبين صعوبة التوبة عليه ، فأمره النبي صلى الله عليه وسلم بالصدق فقط ؛ فكان الصدق وحده سبيل هدايته وتوبته ، فتاب الله عليه وكان من الصديقين . وانظر إليه صلى الله عليه وسلم في حاله مع أعرابي أساء القول إليه ، فما زال به النبي رفيقاً ، حتى قال قولاً حسناً ، ثم قال عليه السلام في سياسته في الدعوة متمثلة في أمر ذلك الأعرابي الذي هم بعض الصحابة بقتله : « مثلي ومثل هذا الرجل مثل رجل له ناقة شردت عليه ، فانبعها الناس ، فلم يزيدوها إلا نفوراً ، فناداهم صاحبها : خلوا بيني وبين ناقتي ، فإنى أرفق بها منكم وأعلم ، فتوجه لها بين يديها

فأخذ لها من قمام الأرض ، فردها حتى جاءت واستناخت ، وشد عليها رحلها ، واستوى عليها ؛ وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار » .

٧ — هذه هي الدعوة القوية الرفيقة الرشيدة تقتدى فيها برسول الله صلى الله عليه وسلم ونكون كصاحب الناقة نستدرجها ونأخذها على رفقها وهينها ، حتى يستولى الدين على القلوب والجوارح والأعمال ، ويكون الأمر كله لله . وإن هذا فقه الدعوة ؛ فلكل أمر فقه وعلم ينفذ إلى لبابه ، وبه يصل إلى غايته ؛ ولقد قال على رضى الله عنه في سياسة الحق : « الفقيه كل الفقيه من لم يُقنط الناس من رحمة الله ، ولم يرخص لهم في معاصي الله ، ولم يؤمنهم من عذاب الله ، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره . إنه لا خير في عبادة لا علم فيها ، ولا في علم لا فهم فيه ، ولا قراءة لا تدبر فيها » .

وعلى الداعي أن يستنكر المعاصي كلها ، لا فرق بين صغير وكبير ، ولا حقير وخطير ؛ فإن محقرات الذنوب ذرائع إلى كبيرها ، ولكن على من يسوس الرعية ، وقيمتها على دعائم الحق أن يكتفى من العمل الملتزم الحتمى بما تطيقه الجماعة التي سادها الشر ، وسيطر على نفوسها ومداركها وعقولها ، ويتبدى بالأمر الواضح البطлан ثم الذي يليه حتى يستقيم الأمر كله ، ليُظهر قبح كل ما هو قبيح في الشرع ، ولكن لا يحمل الناس بقوة السلطان إلا على أشدها قبحاً ثم ما يليه متدرجاً حتى يصل إلى الغاية القصوى من أوامر الله ونواهيه .

٨ — إن الرفق في العمل سبيل الرشاد ، وطريق السداد في مثل هذه الظلمة الحالكة ، فمن يسير في طريق مظلم حاملاً المصباح لا يسرع حتى لا يتقحم فيما لا يحسن ؛ وحتى لا ينطفئ المصباح بالعواصف الهوجاء ، بل يسير مسدداً خطواته في هنية ورفق ، ومحافظاً على المصباح حتى لا ينطفئ ؛ فإن السير على هذا النحو يجعل الداعي إلى الخير يداً ، ويسير من نجاح إلى نجاح ، ويعمل ولا يكل ، ويصل إلى الغاية ، وإن طال الزمان ، وقلَّ العمل في بعض الأحوال ، ولقد قال صلى الله عليه وسلم : « سدّدوا وقاربوا وبشروا ؛ فإنه لن يُدخِل الجنة أحداً سَمَلَهُ ، واعملوا فإن أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل » .

فليعمل الدعاة في رفق وأناة ، وليأخذوا الناس بالحق إلى الحق ، ولا يعتنواهم فإننا قد ورثنا أزمانا كان الشر فيها مستحكماً ، والردائل مسيطرة ؛ لجلج فيها الباطل ، وخفت فيها صوت الحق ، حتى ظننا الظنون ، وحتى استئسنا ووقع في نفوسنا أن

الرسول قد كذبوا ، ولا طريق لحمل الناس على التصديق . وإن الدعاة إلى الحق صاروا كالفابضين على الجمر ، وكان الشح مطاعا والهوى متبعا ، وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ، حتى إذا رأيتم شحا مطاعا وهوى متبعا ، ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأى برأيه فعليك بنفسك ، ودع عنك العوام ، فإن من ورائكم أياما ، الصابر فيهن كالفابض على الجمر ، للعامل فيهن أجر خمسين رجلا يعملون مثل عملكم »

والآن والحمد لله قد تفتحت الآذان قليلا للاستماع لهدى القرآن بعد أن كان الهوى متبعا ، والشح مطاعا ؛ فلنوسع الباب برفق ، ولنسرف فيه بأناة ، ولنصبر ولنصابر ، ولنجاهد ، ولنرابط ، والله ولي المتقين .

فتيان صدق

وفتيان صدق لست مطلع بعضهم على سر بعض غير أنى جماعها
يظنون في الأرض الفضاء ويسيرهم إلى صخرة أعيان الرجال انصداءها
لكل امرئ شعب من القلب فآزع وموضع بجوى لا يرام اطلأها

الدستور الإسلامي

فنظم الحكم والإدارة والاقتصاد والمال

للأستاذ الدكتور محمد عبد الله العربي

الأستاذ بجامعة القاهرة

(١)

مقدمة

خواطر وذكريات

مشهد رهيب يطالعنا اليوم في هذه الكرة الأرضية : كل من يمشى عليها من بني الإنسان يدرك أنه سائر بخطى حثيثة إلى هاوية لا مخرج منها . إلى فناء وشيك ودمار شامل . الشعوب ترتعد فرائصها هلعاً من الكارثة الآتية . وقادة الرأي فيها في حيرة مدلهمة بين المذاهب الفكرية المتعارضة ، والفلسفات السياسية المتناقضة (ideologies) ، ولا يرون مخرجاً من هذه الظلمات إلا أنما سوف يسفر عنه الصراع المرتقب . كل هذا الهلع يسيطر على جو الكرة الأرضية ؛ وفيها المذهب الغد ، والطريق الأوحى للنجاة والسلام في الأرض ، مستوراً في غلاف مقفلة ، لا يعيه إلا القليل من أتباعه ، وأما من عداهم من سكان الأرض فلم يسمعوا عنه قليلاً أو كثيراً . ذلك هو الدستور العالمي الذي أوحى الله به إلى خاتم النبيين تبياناً للناس ، وهداية للبشر ، ورحمة للعالمين .

هذا الدستور الإسلامي في نظم الحكم والاقتصاد والمال ؛ بل في الحياة الخاصة لكل فرد ، وفي الحياة الاجتماعية لكل مجتمع ، وفي العلاقات بين شعوب الأرض جميعاً ، في كل زمان ومكان ، هذا الدستور قائم منذ أربعة عشر قرناً يدعو الشعوب الإسلامية إلى التزامه بعد أن هجرته أكثر من ألف سنة ، ويدعو كافة الأمم إلى الاهتمام بأحكامه ، والاسترشاد بأصوله ؛ إن أرادت النجاة ، وطمعت في استقرار السلام والرخاء في هذه الأرض .

والدول الكبرى التي تتنازع اليوم مقاليد السلطان في هذه الأرض ، وتوشك أن تشبك في صراع لا يُبقي ولا يذر ، لو رجعت إلى التاريخ ، واستصدقته ؛ لعلمت أن

مطلع نهضتها كان قبساً من تعاليم الإسلام : انتقل إليها في غلاف الثقافة العربية ؛ فبعد ظلمات القرون الوسطى ، وفتح لعلمائها مغاليق الكون ، ثم تغلبت النزعات المادية ، ونسوا من الإسلام معايير الروحانية ، فتقدمت حضارتهم في جانبها المادى ، وتضعفت في جانبها الروحى ؛ فانقلبت شراً مستطيراً على الإنسانية .

أين هذا الدستور الإسلامى الذى نرى فيه منقذ الإنسانية مما يهددها من فناء شامل ؟ .

إن أصوله الخالدة قد وضعها القرآن ، وفصلتها السنة ، وطبقها العمل في صدر الإسلام . ولكن الشعوب الإسلامية التى أعقبت هذا الصدر الأول نسيت بعض ما ذكّرت به ، وضعف استمساكها بكثير من هذه الأصول ، وغفلت عن خطرها في صون كيان المجتمع ؛ فانحرفت عنها شيئاً فشيئاً حتى نبذتها ظهرياً — وإن حرصت على استبقاء مظهر الإسلام دون جوهره — فلم تلبث أن دب فيها ديب الانحلال ، وأغرّت بأراضيها كل تاهب وغاصب . وأذاقها الله جزاء ما اكتسبت لباس الذل والفقر ؛ فأصبحت وصمة في جبين الإسلام ، وأسوأ داعية للإسلام ، وأكبر منفّر من تعاليم الإسلام .

فهلا بعثنا هذا الدستور الإسلامى مرة أخرى ؛ ليعت الشعوب الإسلامية بعثاً جديداً يتحقق به وعد الله أن تكون خير أمة أخرجت للناس ، وهلا نشرناه على الناس كافة ليأخذ بيد الإنسانية المعذبة إلى مدارج النجاة ؟ .

ذلك ما جال بخاطري يوم حدثني الأخ الكريم (الأستاذ سعيد رمضان) في هذا الموضوع الخطير ، واستحثني على الكتابة فيه . وقد ساورتنى الشكوك في كفايتي لهذه المهمة الكبرى ولما أستكمل الأهبة للاضطلاع بها ، ولكن رأيتني أشرفت على خريف العمر ، ولم يبق متسع للارجاء . وقلت مالى لا أقدم على هذه المحاولة الاجتهادية : أخطئ فيها وأصيب ؛ فينهض أقطاب الفقه الإسلامى لتصويب ما أخطأت فيه ، ولما إذا لا أستجديهم من علمهم الزاخر ما يقصر عنه طوقى المحدود ؛ ومن تبادل الرأى ، وتقلب وجهات النظر ، ومقارعة الحجة بالحجة يخلص لنا دستور إسلامى شامخ البنيان متين الأركان ، يكون فجر السلام وسبيل النجاة للإنسانية المعذبة ؟

ولا بد في كل عمل من بداية . والعمل العظيم قد يبدأه الرجل الضعيف بداية متواضعة ، ثم تتكاثف الجهود الكبيرة والهمم القوية على إنجازه ، والسير به قدما إلى نهاية مداه .

البداية إذن هي العقبة الأولى ؛ ولعل لما يشفع لى فى الإقدام على اقتحام هذه العقبة أنى قضيت أكثر حياتى أدرس نظم الحكم والإدارة والاقتصاد والمال على مناهج الغربيين وفى جامعاتهم ، ثم توليت تدريس هذه النظم الغربية طوال ربع قرن أو يزيد فى الجامعات المصرية ، وبضع سنين فى كلية الشريعة بالجامعة الأزهرية . ولكن ثقافتى كانت فى منبتها ثقافة إسلامية ؛ فوجدتى مسوقا بالرغم منى إلى مقارنة وموازنة بين هذه النظم الغربية وآثارها فى المجتمع الغربى ، وبين الأصول التى جاء بها الإسلام لهداية البشر وآثارها فى المجتمع الإسلامى الأول .

وثبت لى من هذه المقارنة بين الأصول التى تهيمن على النظم الغربية — حتى فى أوضاعها الصالحة — وبين الأصول التى قررها الإسلام منذ أربعة عشر قرنا أن الإسلام هو واضع الأسس لأحكام هذه الأصول وأكفلها بسعادة البشر ، وأن ما اهتدى إليه الغرب منها ، واقتبسه فى البداية من المصادر الإسلامية إنما هو جزء من كل ، بل هو فروع تتسق أحيانا مع الأصول الإسلامية فتستقيم الأمور ، ولا تتسق فى الغالب فتختل الموازين ، وتضطرب الأمور ، ويشيع الفساد فى الأرض . وما حنة العالم الآن بين المعسكر الشيوعى والمعسكر الرأسمالى ، بين الفلسفتين المتعارضتين ، وما يتوقعه من كوارث ماحقة إلا نتيجة حتمية لخروج هذه الفروع ، وما تمثلها من نظم عن الأصول الإسلامية الصحيحة ، وانحرافها عن الأسس التى فرضها الإسلام .

إذن فلنستخر الله القدير فى جمع شتات هذه الأصول ، فى نظم الحكم والإدارة والاقتصاد والمال ، ولنطبقها على احتياجات العصر الذى نعيش فيه ، لنفرع منها أوضاعا تلائم مستوى الحضارة التى نعاصرها فى هذا القرن العشرين ، ولنستخرج منها أجهزة حكومية واقتصادية تكفل الوفاء بمطالب البشر على الوجه الأعدل والأكمل . هذا مع الحرص الدقيق على سلامة هذه الأصول الخالدة من كل تحريف أو تشويه .

فإذا تمت إقامة هذا البيان الدستورى الشامل — وسيتبعون الله ويتعاونون أقطاب الفقهاء الإسلامى وعلماء الإسلام فى كل أرض إسلامية — صار الدستور الذى تلتزمه جميع الشعوب الإسلامية ، وصار رباط الوحدة فى الوطن الإسلامى الموحد ، وصار القدوة التى تحتذىها سائر الأمم ، ومنقذها القوى الأمين فى دور الحيرة والانحلال الذى تتردى الآن فيه .

هذا هدفنا ؛ فليتعاون المسلمون جميعاً على بلوغه ، والله المستعان .

وتحضرني الآن بعض الذكريات ، أرى أن أسوقها ختاماً لهذه المقدمة وتدعيها لهذه الحواطر :

في سنة ١٩٢٢ -- وكنت في بعثة وزارة العدل إلى جامعة أوكسفورد -- قامت في اتحاد الجامعة مناظرة حامية الوطيس بين مجندى الحكم الديمقراطي وناقديه : أما الفريق الأول فقام بشيد بفضل بريطانيا على العالم في استحداث النظام البرلماني وإقامة دعائم الحكم الديمقراطي ، ونددوا بالدكتاتوريات التي تمنح حرية الفرد وكرامته الإنسانية ، وتناولوا بالقدح ما جموه الدكتاتوريات الإسلامية ذات الحكم الأوتوقراطي المطلق الذي هوى بشعوبها إلى حضيض الفقر والعجز .

وقام الفريق الثاني يندد بمفاسد الديمقراطية وما يلابسها من نفاق وخداع ، وشرحوا مهزلة النظام البرلماني الذي يمثل في ظاهره إرادة الشعب ، وفي باطنه إرادة فئة قليلة استحوذت على النفوذ الأكبر بحكم سيطرتها على مصادر الإنتاج ، وازدادت أموالهم على مر السنين ضخامة وازداد عددهم قلة ؛ حتى احتكروا توجيه الحكومات القائمة بالرغم من جميع أجهزتها الديمقراطية ، وصارت القوة التي يصلون بها -- ولا رقابة عليها إلا ضمائر أربابها الدغلة -- أداة إفساد للهيئات السياسية بما تنثره من الرشى وما تطلقه من السُّنَدُر ذات اليمين وذات اليسار ، وأداة إفساد للإدارات الحكومية ، وامتدت أذاهم إلى الناخبين أنفسهم بحكم سيطرتهم على مراكز توجيه الرأي العام ؛ فأضلوا الشعوب عن كثير من الحقائق ، وحجبوا عنها حقائق أخرى ، وزينوا لها كل باطل وبهتان .

قام الصراع بين الفريقين على هذا النحو ، فوجدت لزماً على أن أسهم في هذه المعركة لعلني أكشف لهم وجه الحق فيما فيه يمترون .

فقلت للفريق الأول : لقد افتريت على التاريخ مرتين : الأولى عند ما قررت أن بريطانيا كانت منبث الحكم الديمقراطي ومولد النظام البرلماني ، والثانية إذ زعمت أن الحكم الإسلامي هو حكم دكتاتوري مطلق ؛ أما الحق فهو أن الشرع الإسلامي كان هو المنبع الصافي الأول للحكم الديمقراطي بأكمله معانيه ، وذلك حين كانت بريطانيا في ظلام القرن السابع الميلادي تتخبط في غياهب الجهالة البدائية .

ذلك لأن الأديان السماوية كانت -- إلى أن جاء الإسلام -- تقتصر رسالتها على الدعوة إلى الأخلاق الفاضلة ، وتدع رسم نظم الحكم إلى تدبير البشر ، تاركة مالم يقصر لقيصر وما لله لله . أما الإسلام -- خاتم الأديان -- جاء على خلاف المألوف في الكتب

الساوية التى سبقته بدعوة صريحة إلى نظام حكومى يجب التقيد به ، ولا فكاك منه ، هو نظام الشورى والحكم الديمقراطى بأنهم معانيه ، مدعماً برقابة من الله دائمة ، يستشعرها الكافة : حكماً ومحكومين ، خمس مرات فى صلواتهم اليومية .

وقلت للفريق الثانى : إن جميع المساوىء التى تنعياها على النظام البرلمانى ، والحكم الديمقراطى قد اجتنبها نظام الحكم الإسلامى فى الأصول التى فرضها القرآن ، وطبقت فى صدر الإسلام . وحسبك أن تعلم أن بعض أنظمة الإسلام — كنظام الزكاة ونظام الموارث — كفيلة بالحيلولة دون تكسب الثروة فى أيدي فئة قليلة . ثم إن التربية الفردية التى فرضها الإسلام على كل مسلم ، ورسم لها وسائل عملية ناجعة ، كفيلة بتحقيق تعاون الطبقات ، وتدعيم التضامن الاجتماعى بينها ، ونشر لواء البر والرحمة على الكافة .

ثم مضيت فى شرح موجز لأصول الدستور الإسلامى التى تنظم حياة الفرد ، وحياة الجماعة ، وحياة البشر كافة ، على أكمل وجه يكفل لهم جميعاً الخير والسلام .

يومئذ تمنيت لو أن بين يديّ كتاباً منشوراً عن الدستور الإسلامى ، يرد عن نظام الحكم فى الإسلام عادية الجاهلين ، ويفند إفك المفتريين ، الذين اتخذوا من النظام القائم يومئذ فى أكثر الأمم الإسلامية حجة على الإسلام .

* * *

وفى سنة ١٩٤١ أتيحت لى فرصة أوسع لتبيان فضل الإسلام على الإنسانية فى نظم الحكم .

وذلك حين نظمت الجامعة الأمريكية بالقاهرة سلسلة من المحاضرات عن الديمقراطية ، وعهدت إلىّ بإلقاء المحاضرة الأولى عن نشأة الديمقراطية ؛ فشرحت لهم — فيما شرحت — كيف استنبط فلاسفة اليونان نواة الفكرة الديمقراطية ، وكيف طبقوها المدن اليونانية القديمة ، فكانوا لا يعترفون بالسيادة إلا للقانون ، والقانون عندهم هو رأى مجموع أهل المدينة . وروما القديمة فى عهدها الملكى وعهدها الجمهورى عرفت فى لجائها الشعبية مبدأ الحكم الديمقراطى إلى أن جاء القيصرية فاستأثروا بالسلطان .

غير أن هذه الديمقراطيات القديمة كانت ذات طابع خاص يُبعد ما بينها وبين الديموقراطية الحتمية ، ويُدينها كل الدنو من النظام الأرستقراطى ؛ لأن الذين كانوا يسهمون فى حكم المدينة وحياتها السياسية هم فقط أقلية ضئيلة من أهل المدينة ، وهم

الذين يتمتعون بحق « المواطن » ، أما من عداهم من أرقاء ينهضون بأعباء الحياة الاقتصادية ، وأحرار لم يصلوا إلى مرتبة « المواطن » فليس لهم أى نصيب فى حكم المدينة . فإذن لم تكن مقاليد الحكم بين جمهور الشعب كما تقضى الديمقراطية الحقة ؛ بل كان لأقلية محدودة من أهل المدينة . وكانت الفكرة التى تسود الأقدمين عن الديمقراطية — كما قال أحد العلماء — هى أن الإنسانية يجب أن تعيش لهذه الأقلية المختارة . وهكذا لم تنهض الحرية فى الأمم القديمة — كما قال (روسو) — إلا على أكتاف العبودية .

ثم كان للكتب السماوية نصيب كبير — ونصيب متدرج — فى التمهيد للديمقراطية . فالكتب السماوية التى سبقت نزول القرآن ، وإن لم تعرض لنظم الحكم ، وتركت ذلك لجهود البشر ، يستحدثون فيه ما يرونه أصلح لأحوالهم الدنيوية ، واكتفت بالدعوة إلى الفضائل الخلقية اللازمة لإسعاد المجتمع البشرى فى هذه الدنيا وفى الآخرة ؛ إلا أن هذه الدعوة فى ذاتها كانت خير تمهيد للديمقراطية .

ذلك لأن للديمقراطية أصولاً يجب أن تراعى حتى لا تخرج الديمقراطية عن مدلولها ، ودعائم خلقية هى وحدها التى يقوم عليها الحكم الديمقراطي الصحيح . هذه الأصول والدعائم دعت إليها الديانة المسيحية دعوة صريحة فى دعوتها إلى إقامة العدل والرحمة ، والبر والإحسان ، والمساواة بين البشر كرفيعهم وضعيفهم ، قويمهم وضعيفهم ، وفى تقريرها — أسوة بسائر الأديان السماوية — أن الإنسان له حياة خالدة بعد هذه الحياة الفانية ، وأن الله المسيطر وحده على هذا الكون قد فرض على الإنسان فى هذه الحياة الدنيا إقامة العدل ونشر الإحسان ، وأخذ عشيرته وجيرته والناس جميعاً بالرحمة والبر . هذه قوانينه العليا التى يجب أن تخضع لها قوانين الدولة ، وتسترشد بها كافة الأحكام الوضعية .

فالمسيحية إذن مهدت البشر للأخذ بالديمقراطية بما ندبتهم إليه من أحكام خلقية وفصائل نفسية ، وبما رفعت من شأن الفرد بإفصاح أفق تفكيره ونطاق غاياته من هذه الحياة ؛ وبذلك امتازت عن فلسفة اليونان المادية التى كانت تعنى بصالح أمر الإنسان فى هذه الحياة فقط ، وكانت لذلك ضيقة النطاق تبعاً لهذا الهدف المحدود .

ذلك كان نصيب المسيحية فى التمهيد للديمقراطية ، وغرس دعائهما فى النفوس . ثم جاءت على الإنسانية فترة سوداء نسي فيها أهل المسيحية فضائل دينهم ، وانحرفوا عن أحكامه ، وشوهوا تعاليمه ، واستعبد الإنسان أخاه الإنسان ، واستعلى فريق على فريق ،

وغاضت الرحمة من النفوس ، ونضب معين البر ، وعم الفساد فى الارض ؛ فأزّل الله القرآن تبياناً للناس وهدى ورحمة للعالمين .

نزل القرآن — آخر كتاب من عند الله — فسجل تلك الفضائل والأحكام الخلقية التى دعت إليها المسيحية ، ثم رسم لها الوسائل العملية الكفيلة بتمكينها فى النفوس ، بما فرضه من عبادات تربط بين الإنسان وربّه بغير وسيط أو شفيع ، وتربط بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة برباط وثيق .

ثم خطا بالإنسانية الخطوة الأخيرة ، وأتم ما مهدت له الكتب السماوية من قبل ، فدعا دعوة صريحة إلى نظام حكومى يجب التقيد به .

أصول هذا النظام الجامعة هى أولاً : دستور القرآن فيما رسمه من أحكام عامة تنظم حياة البشر ، ثم فيما قرره من تنصيب أداة تنفيذية تقوم على إنفاذ هذا الدستور القرآنى . قيام هذه الأداة يكون أولاً باختيار رئيس الدولة أو الخليفة بالمبايعة أو الانتخاب العام ، ثم تقييد هذا الخليفة فى تصرفه شئون الدولة بهذه الأحكام القرآنية العامة ، وتقييده فى التفريع عنها والتفصيل لها طبقاً لحاجات كل زمان ومكان بنظام الشورى — وهو النظام البرلمانى الحديث — ثم فرض الإسلام تلك المبادئ الأساسية التى فى سبيلها انفجر بركان الثورة الفرنسية وثورات أخرى سابقة ولاحقة : مبادئ الحرية والإخاء والمساواة . ثم قرر إلى جانب ذلك تلك الأصول الدستورية التى بدونها يكون النظام البرلمانى اسماً على غير مسمى : حرية القول والرأى والنقد — نقد الحكم فى سبيل المصلحة العامة — بل قرر حق النقد إلى حد لما تذهب إليه الشرائع الأوربية فى هذا القرن العشرين ، إلى حد تبرير المقاومة النائرة المصلحة العامة : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده (أى بالقوة) فإن لم يستطع فبلسانه (أى بإبلاغ السلطات العامة أو تنبيه الرأى العام) فإن لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان » و « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » . وجواب الأعرابى للخليفة عمر : « لو رأينا فيك أعوجاجاً أقومناه بمحمد السيف » .

ثم نسج على كل هذه الأصول والمبادئ ثوباً طهوراً من الأخلاق ليكون وقاية منيعة لهذا البيان الديمقراطى الرفيع ، الأخلاق التى يجب أن يتمتع بها الأفراد والجماعات ويرفعوها فوق كل زخارف هذه الحياة ومناعمها ، الأخلاق التى هى علة العمل فى الديمقراطيات الحديثة ، ومصدر أزماتها الخائفة ، بل الداء الويل الذى ينخر فى هيكلها حتى ليوشك أن ينهار .

هذه المبادئ، والأصول الديمقراطية الحكيمة سادت بالفعل عهداً قصيراً في صدر الإسلام . وقصر هذه المدة لم يكن يسمح بترجمة هذه المبادئ العامة إلى أوضاع ماثلة للعيان ، لها إجراءات مفصلة ، ومراسيم مرتبة ، وشعائر مجسمة ، وتقاليد راسخة ، بل بقيت على حالتها الأولى من التعميم والإجمال .

هذا التعميم في المبادئ والإجمال فيها ، كانت له ميزة مقصودة ، ونتج عنه ضرر غير مقصود . أما الميزة المقصودة فهي أن التعميم الذي لا ينزل إلى التفصيلات الجزئية لا يقيد الأجيال المقبلة بهذه التفصيلات والتطبيقات ، بل يتركها حرة تقتبس الوضع الحكومي الذي تتوفر فيه الملاءمة العملية لحاجات كل زمان ومكان ما دامت تسوده الفكرة الديمقراطية بوجه عام . وهذه هي المرونة اللازمة في المبادئ التي يراد لها الخلود لتكون ملائمة لتطور احتياجات البشر .

أما الضرر غير المقصود الذي نتج عن هذا التعميم فهو أن المبادئ العامة المجردة التي لم تترجم بعد إلى أشكال بارزة ، وأوضاع ماثلة للعيان ، ومعالم قائمة مرتبطة بهذه المبادئ ارتباطاً ذهنياً — ارتباطاً لا انفصام له بحيث أن إحداها تذكر أبدأً بالأخرى — مثل هذه المبادئ المجردة لا يكون لها سلطان كبير على عقلية الشعب ، بحيث يكون أسهل على بعض الخاصة أن يصرفوهم بالخداع أو بالقوة عن التمسك بها ؛ وهذا ما حصل بالفعل في الديمقراطية الإسلامية .

فإن الأجيال التي أعقبت الصدر الأول من الإسلام غفلت أو تغافلت عن خطر هذه الأصول الديمقراطية ، وعن ضرورة استنباط القواعد التنفيذية والإجراءات العملية التي تكفل نفاذ هذه الأصول العامة في كل نواحي سياسة الدولة . وتوالت الأجيال المتعاقبة وهي ذاهلة عن واجبها في استخراج الأوضاع والأساليب العملية التي تكفل التوفيق بين هذه الأصول العامة واحتياجات كل عصر ؛ فلم تلبث هذه الأصول الديمقراطية لطول الترك أن اندثر خطرهما في وجدان الشعب ، ولحقها من تشويه المعنى وعبت التفسير ما جعلها مطية ذلولاً لبغى الطغاة وسحق الحريات .

والمطامع على تاريخ الشرع الإسلامي لا يسعه إلا أن يقرر أن وزر هذا البلاء واقع أولاً على نفر من الخاصة استهانوا بالأصول الديمقراطية التي دعا الإسلام إلى إقامتها ، وقلبوا الخلافة إلى أوتقراطية وراثية مطلقة ، وهدموا مبدأ الشورى ومستلزماته ، واستعانوا على ذلك تارة بتغريير الخداع ، وتارة ببطش القوة .

وواقع ثانياً على بعض رجال الفقه الإسلامى الذين لم يكبحوا جماح هذه النزعة الأوتقراطية، وتركوها تسير فى طريقها الخرب ؛ فأكثرهم لم يخصصوا هذه الأصول الديمقراطية وما يجب تفرعه عنها من نظم حكومية مفصلة ببعض العناية التى أغدقوها على سائر الأحكام الأخرى كأحكام المعاملات مثلاً .

ولقد كان لهم فى الصلاة أسوة حسنة ؛ فإن الصلاة — أولى العبادات — قد فرضها القرآن بنصوص مجملة ، ولكن السنة فصلاتها تفصيلاً ، ورسمت أوضاعها ، وأقامت شعائرها وأبرزت معالمها ، على نحو يطبع فى الذهن جميع المعانى الروحية التى تهدف إليها الصلاة . كذلك نظام الحكم : فرض القرآن فيه مبدأ الشورى بنصوص مجملة ، وطبقت السنة والخلافة الرشيدة هذا المبدأ تطبيقاً كاملاً . ولكن كان يجب على فقهاء الإسلام أن يبذلوا جهداً مماثلاً فى أن يستخرجوا من هذا المبدأ العام أوضاعاً وتفصيلات ومعامل تطبع فى أذهان الشعب الصلة بين مبدأ الشورى وهذه الأوضاع التفصيلية الماثلة للعيان ، وكان يجب عليهم أن يرسموا أجهزة تنفيذية تكفل نفاذ المبدأ العام وتحول دون القضاء عليه أو المساس به ؛ حتى لا يسهل على حاكم أوتقراطى أن يصرف الرعية عن الأصل العام فى نظام الشورى ، على أن تكون هذه الأوضاع والتفصيلات والأجهزة قابلة للتبديل والتحويل بحسب تطور احتياجات كل عصر .

ذلك ما آخذهم عليهم : أنهم لم يضعوا تدوينات متجانسة مجتمعة الشمل للدستور الإسلامى ، ولم يرسموا الأجهزة التنفيذية التى تحول دون العدوان عليه ، وتبرز جانبه الروحى فى وجدان الشعوب . وقفنوا بأن أودعوا طى كتبهم الحافلة نبذاً فيه ، منفردة عارضة ، لا تبرز — وهى على هذا الشتات — صورة قوية متماسكة كاملة للدستور الإسلامى . ولكن صدق هذه الأصول الإسلامية التى أوحى الله بها إلى نبيه فى رمال الجزيرة العربية لم يذهب سدى ، بل نجابت به أجواء أخرى ؛ فبعد بضعة قرون من مجاورة أوروبا للأمم العربية بدأت الدعوة إلى مقاومة طغيان الملوك ، وإلى إقامة نظام الشورى والحكم الديمقراطى تنسرب إلى عقول المفكرين من علماء أوروبا ، ورجال الدين فيها الذين كان كبارهم يجيدون اللغة العربية ، ويطلعون على كتب علماء وفقهاءها . ثم مضت بعد ذلك فى محاضرتى أورخ تطور الفكرة الديمقراطية فى الدول الأوروبية (١) ، وأبين العلل التى انتابتها نتيجة انحرافها عن الأصول الإسلامية الصحيحة .

* * *

(١) محاضرة أقيمت بالجامعة الأمريكية فى يوم ٢٢ نوفمبر ١٩٤١ ونشرت فى مجلة القانون والاقتصاد ، السنة الثانية عشرة ، العدد الأول .

وفي سنة ١٩٤٧ نشرت كتابي في علم المالية العامة في خمسة أجزاء ، وقلت في مقدمته :
إني سوف أخصص الجزء السادس لاستنباط أحكام الشريعة الإسلامية في المالية العامة .
وقلت : إن الدستور الإسلامي في المالية العامة جدير بأكبر عناية من فقهاء المالية العامة
وفقهاء الشريعة الإسلامية على السواء ، وخلق بأن تتضافر الجهود على كشفه وعلى
الانتفاع به في حل معضلات التنظيم العالمي الحديث .

وإن المطلع على كتب الفقه الإسلامي لا يسهه إلا أن يقرر أن الإسلام قد وضع
الأصول الجوهرية لأحكام وأعدل سياسة مالية ، ورسم وجوه الإنفاق الحكومي
الرشيد ؛ لا سيما في الاتجاه الاجتماعي الذي لم تسع إليه الدول الغربية إلا في القرن
العشرين ، ولما تبلغ فيه غايته المرجوة . كما رسم ضروب الفرائض التي تؤدي إلى « بيت
المال » الذي ينفق منه على كافة المصالح العمومية تنفيذاً لقاعدة « عمومية الميزانية » ،
حق « قاعدة التصاعد في الضريبة » وقاعدة « إعفاء الحد الأدنى للعيشة » نص عليهما
في نصاب الزكاة التي كانت تؤدي إلى بيت المال ، وكان الخليفة يجبها من المسلمين
طوعاً أو كرها .

هذه الأصول — وكثير غيرها — قررها الشرع الإسلامي ، ولكننا تناسيناها
وغفلنا عن واجب التفصيل في تطبيقها بما يسير تطور الحضارة واحتياجات كل عصر ،
وعزفنا عن استخلاص علم شامل لها ، حتى إذا وصلنا إلى ما نحن فيه صرنا نهرع إلى
الغرب ننتجع علم المالية العامة عند علمائه ومشرعيه ؛ في حين أن أصول هذا العلم قد
وضعت لنا وللناس كافة منذ أربعة عشر قرناً .

ويقيني أن الدول الإسلامية إذا استطاعت إقامة فرائض الدولة من الضرائب
والأتاوى ، وإقامة وجوه الإنفاق الحكومي مع التزام القصد والرشد فيه ، على أسس
مستمدة من وازع الدين وهديه ، إذا استطاعت الدول الإسلامية إقامة هذين النظامين
— الضرائب والنفقات — على تلك الأسس المعنوية الرفيعة ، لا على أسس الإكراه
والقهر وحدها ، مع الاسترشاد العملي بأخطاء الدول الغربية وتجاربها ؛ فإننا نكون
بغير شك قد حققنا المثل الأعلى في التدبير المالي الحكيم ، وضبط الإدارة المالية على
الوجه الأعدل والأكمل .

تلك بعض ذكريات أثارها هذه المقدمة التي رأيت أن استفتح بها دراستي للدستور
الإسلامي ، بل قل هي أمانى تحيى في وجدان كل مسلم ، وإن تحقيقها لقريب بإذن الله .

أَسْئَلَةُ حَوْلِ الْحَقِّ الطَّبِيعِيِّ

لِلأَسْتَاذِ الدُّكْتُورِ مُحَمَّدِ مَعْرُوفِ الدَّوَالِي

١ — لم يتكلم الإسلام ولا الفقهاء عن الحق الطبيعي كما تكلم عنه فلاسفة اليونان ومن بعدهم الأدباء والفقهاء من الرومان ، ثم الكثيرون من العلماء في العصور الحديثة منذ العصر السابع عشر على لسان العالمين غروسيوس Grotius الهولاندي وبوفيندورف Puffendorf الألماني ، وذلك بفضل النظريتين المشهورتين : نظرية الحالة الطبيعية l'état de nature ، ونظرية العقد الاجتماعي le contrat social .

٢ — وكل ما جاء عن اليونان ونقله عنهم الرومان في مطلع مدونة جوستينيان : le sinstitutes ، هو « أن الحق الطبيعي ذلك الحق الذي لقنته الطبيعة لجميع الموجودات الحية ؛ وهو ليس بخاص بالإنسان ، بل مشترك بينه وبين سائر الحيوانات التي تعيش في السماء والأرض والبحار ، وهو يشمل على صلة الذكر بالأنثى ، وعلى التناسل ، وعلى تربية الأولاد » .

وهذا التعريف للحق الطبيعي نقله جوستينيان عن الفقيه أولبيان ؛ وقد أبدى عليه الفقهاء الرومان أنفسهم ملاحظات تتلخص بأنه إذا كان هنالك بعض الحيوانات تشترك حقيقة مع الإنسان في بعض الخصائص ، فليس ذلك من الحقوق في شيء ، وإنما هو من الفطرة المشتركة ما بين الإنسان والحيوان وليس هذا بالحق الطبيعي ؛ لأن الحق يفترض في صاحبه أن يكون من الموجودات المتمتعة بالعقل ، والحيوان ليس بعقل

٣ — وقال سيرون Cicéron من أدباء الرومان في العصر الأول قبل الميلاد في تعريف الحق الطبيعي نقلاً عن اليونان أيضاً : « يوجد قانون حقيقي ، متفق مع الطبيعة ، ومنتشر لدى كل الناس وهو عام وثابت وأبدى ؛ وأن الله هو الذي أوجد هذا القانون ، وأن الذين يخرقون هذا القانون سيعاقبون ؛ لأنهم قد خرجوا على طبيعة الإنسان » .

وإن تعريف سيرون هذا لهو أقرب للحقوق ، وهو يتناول جميع البشر بالمساواة فيه ، لافرق بين كبير وصغير ، ولا بين عرق وآخر ، ولا بين شعب وشعب .

٤ — غير أن العلماء — حتى اليوم — لم يستطيعوا أن يحددوا هذا الحق الطبيعي ليصلح أداة واضحة لإحقاق الحق لدى رجل الحقوق ورجال القضاء .

وجل ما هنالك أن نظرية « الحالة الطبيعية » تقول إن هنالك حقا طبيعياً موجوداً لدى الناس جميعاً قبل أن يقدم الناس على تأسيس الجماعات عملاً بنظرية « العقد الاجتماعي » ؛ وهكذا فإن الحق الطبيعي يقابل في العصر السابع عشر نظرية العقد الاجتماعي وماتج عنها من تنازل الإنسان عن بعض الحقوق الطبيعية لحكمة عملية ، وضرورة اجتماعية في سبيل تأليف المجتمع المنظم بموجب عقد فرضي هو العقد الاجتماعي .

٥ — وقد حوربت فكرة الحق الطبيعي خاصة — في القرن التاسع عشر — من غير هوادة ، وكان من أبرز نقاط الهجوم المشتركة ما بين كل من انتقدوا فكرة هذا الحق : أنه لا يستطيع أحد أن يثبت لهذا الحق قواعد واضحة ؛ وقالوا إن الفقهاء الذين يبحثون في قوانين الطبيعة يعتمدون على ثقافتهم الشخصية واستنتاجاتهم الخاصة ، وهذا ما يؤدي في النهاية إلى وجود عدد من الحقوق الطبيعية بقدر عدد الباحثين .

٦ — ولما جاء هذا العصر العشرون ، عادت فكرة الحق الطبيعي إلى الظهور من جديد ، وبشكل آخر تحت ستار « المبادئ الأخلاقية » و « المثل العليا للمدالة » رغبة بأن يخرجوا الفكرة شيئاً ما عن غموضها ! وهذا كل ما استطاع العلماء إيضاح الحق الطبيعي به في هذا العصر ، وبعد بضع آلاف من السنين من نشأة فكرة هذا الحق منذ أيام اليونان والرومان حتى الآن ، وبعد كثرة تلك المؤلفات الضخمة المتناقضة في هذا الموضوع . ومن الطريف في هذا المقام ما قاله أحد أسانذتنا في جامعة باريس : إذا ذكر الحق الطبيعي ، فإنه لا يسنى إلا الإغراق في الضحك من شيء لا يمكن تحديده ، ولا الوقوف على كنهه .

٧ — وإذا عرفنا هذا ، فهنالك أسئلة حول الحق الطبيعي لعلنا إذا أوردناها وأجبنا عليها بما هو واقع وحقيقي ارتفع الحجاب ، وزال الغموض .

ومن تلك الأسئلة .

أولاً — لماذا اهتم بالحق الطبيعي فلاسفة اليونان ، وتبعهم في ذلك فقهاء الرومان ؟

ثانياً — لماذا لم يهتم المسلمون بالحق الطبيعي ، ولم يأت له ذكر في فقه الإسلام ؟

٨ — والجواب على السؤال الأول سهل وبسيط ؛ وهو أن الحق الطبيعي إنما أخذ فلاسفة اليونان وفقهاء الرومان بذكره والمطالبة بالوقوف عند حده ، معالجة لفكرة التمييز ما بين المواطنين في الحقوق في تلك الأيام ، والشذوذ على قواعد المساواة فيها ؛ ألا ترى كيف أن القانون الروماني ظل منذ نشأة روما سنة ٧٥٤ قبل السيد المسيح حتى سنة ٢١٢ بعده امتيازاً ووقفاً في بادئ الأمر على سكان مدينة روما فقط

الأصليين دون بقية اللاتين فيما حول روما من منازل الإيطاليين ، ولم يستطع بقية اللاتين أن يلتحقوا بالوطنيين الرومانيين في الحقوق إلا بعد أن صدر قانون جوليا في سنة ٩٠ قبل السيد المسيح ، وجعل منهم استثناء في الامبراطورية ! وأما الغرباء عن العرق اللاتيني من أبناء الامبراطورية الرومانية الواسعة فما استطاعوا أن يصبحوا وطنيين إلا عندما سيطر الامبراطور كارا كالا Caracalla وهو بنفسه من الغرباء : فينيقي سوري ، وليس بروماني ؛ فأزال — بحكم سيطرته على الامبراطورية — هذه الإهانة عن الغرباء ، وأصدر في ذلك مرسوما امبراطوريا خاصا جعل حق الاستفادة من القانون الروماني شاملا للجميع مواطني الامبراطورية على اختلاف أعراقهم من غير تمييز ولا تفريق .

غير أن هذا المرسوم الامبراطوري لم تعش أحكامه بعد أن طردت عائلة سيفير Sévère من الحكم ، وهي العائلة التي ينتسب إليها كارا كالا ، بل إن المصريين أنفسهم ظلوا حتى في عهد كارا كالا محرومين — ما عدا مدينة الإسكندرية — من الامتيازات الممنوحة للوطنيين الرومانيين ! وظل القانون الروماني قائما على ما قامت عليه دولة روما في الأصل من التمييز ما بين الحاكم والمحكوم ، وبين الأشراف والطبقة الشعبية ! ومن العجيب أن القانون الروماني بنفسه لا يطبق في هذا العصر العشرين إلا في دولة جنوبي أفريقيا التي تبنت القانون الروماني كما هو ، وجعلت منه قانونها المدني ؛ وإذا بفكرة التمييز ما بين المواطنين في الشرف والوضاعة تلازمه في تلك الدولة . وكنا نعلم الضجة القائمة منذ سنة حتى الآن في الأمم المتحدة ضد حكومة جنوبي أفريقيا بسبب فكرة التمييز العنصري والتفريق ما بين العرق الأبيض والعرق الأسود في الحقوق ! ! وهكذا فإن السر في ذكر الحق الطبيعي لدى أمة قامت حقوقها على التمييز بين المواطنين كما رأينا ، إنما هو الشذوذ فيها عن قواعد المساواة بين المواطنين ، ولعلاج لذلك الشذوذ إلا بالاتجاه إلى الحق الطبيعي الذي سوى بين الجميع ، والذي يجب أن يفهم ضمن هذه الحدود ، كفكرة فلسفية ، لا كقاعدة ذات أحكام من أحكام الحقوق ، وبذلك يزول اللبس والغموض .

٩ — وإذا عرفنا الجواب على السؤال الأول ، عرفنا منه بسهولة الجواب على السؤال الثاني وهو : لماذا لم يهتم المسلمون بالحق الطبيعي ، ولم يأت له ذكر في فقه الإسلام ؟ وذلك لأن الإسلام قام في أساسه على محاربة هذا التمييز بين المواطنين ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك حتى قال : لا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لأبيض على أسود

إلا بالتقوى ؛ بل ذهب أيضاً إلى أبعد من ذلك بكثير فأمر الغالبين من المسلمين أن يقولوا للمغلوبين من أهل الكتاب : لكم مالنا ، وعليكم ما علينا ١١ فما الحاجة إذن لذكر الحق الطبيعي في فقه الإسلام ، بعد أن سوى الإسلام ما بين الحكوميين والحكام ، وبين المواطنين على اختلاف الأعراق والطبقات ١٢

١٠ — بقى العجب كل العجب أن يذكر الحق الطبيعي في قوانيننا المدنية الحديثة في مصر وسورية — وهذه أخذته عن الأولى — تقليداً للحقوق الرومانية ، رغم أن التشريع في بلادنا ، في تاريخه القديم الإسلامي ، وتاريخه الحديث المزيج ، قائم على فكرة المساواة بين المواطنين بلا تمييز بينهم ، لا بسبب الأعراق ولا بسبب الطبقات .



بلا لا ليس يَعدِلُهُ مَبْحَثَةٌ لِمَا يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى غَيْرِ ذِي حَسَبٍ وَدِينٍ
يَبْهِكُكَ مِنْهُ عَرْضًا لَمْ يَصْنَعْهُ وَيَرْتَعِ مِنْكَ فِي عَرْضِ مَصُونٍ

النشريع الجنائي الاسلامي

للأستاذ عبد القادر عوده

السرقه

أنواع السرقه : —

السرقه في الشريعة الإسلامية نوعان : سرقه عقوبتها حد ، وسرقه عقوبتها التعزير ؛
والسرقه المعاقب عليها بالحد نوعان :

(١) سرقه صغرى (ب) سرقه كبرى .

فأما السرقه الصغرى فهي أخذ مال الغير خفية ، أى على سبيل الاستخفاء (١) .

ويعرفها بعضهم بأنها أخذ مال الغير مستترا من غير أن يؤتمن عليه (٢) .

ويُدخل البعض في تعريف السرقه شروطها ، فيعرفها بأنها أخذ العاقل البالغ نصاباً خفية

عمن هو متصد للحفظ مما لا يتسارع إليه الفساد من المال المتمول للغير من حرز بلاشبهه (٣) .

ويعرفها البعض بأنها أخذ المال خفية من حرز مثله بشروط معينة (٤) .

ويعرفها البعض بأنها أخذ مال الغير خفية ظاهراً مع شرائط (٥) ، ويقول بقطع من

أخذ نصاباً محرراً ملكاً محترماً خفية لا شبهة فيه (٦) .

ويعرفها البعض بأنها أخذ مال محترم لغيره وإخراجه من حرز مثله لا شبهة له فيه

على وجه الاختفاء (٧) .

ويعرفها البعض بأنها أخذ مكلف حراً لا يعقل لصغره أو مالا محترماً لغيره نصاباً

أخرجه من حرزه بقصد واحد خفية لا شبهة فيه (٨) .

وأما السرقه الكبرى فهي أخذ مال الغير على سبيل الغلبة . وتسمى السرقه

الكبرى حراية ، وسنفصل القول فيها فيما بعد .

والفرق بين السرقه الصغرى والسرقه الكبرى هو أن السرقه الصغرى يؤخذ

فيها المال دون علم المجنى عليه ودون رضاه ، ولا بد لوجود السرقه الصغرى من توفر

(١) ابن عابدين ج ٣ ص ٢٦٥ — بدائع الصنائع ج ٧ ص ٦٥ (٢) بداية المجتهد ج ٢

ص ٣٧٢ (٣) شرح فتح القدير ج ٤ ص ٢١٩ (٤) أسنى الطالب ج ٤ ص ١٣٧ ونهاية

الاحتاج ج ٧ ص ٤١٨ (٥) الروض النضر ج ٤ ص ٢٢٨ (٦) شرح الأزهار ج ٤ ص ٣٦٤

(٧) كشف القناع ج ٤ ص ٧٧ (٨) حاشية البناني ج ٨ ص ٩٢ — مواهب الجليل ج ٦ ص ٣٠٦

هذين الشرطين معا ، فإن لم يتوفر أحدهما فلا يعتبر الفعل سرقة صغرى ، فمن سرق من دار متاعا على مشهد من صاحب الدار دون استعمال القوة والمغالبة فلا يعتبر فعله سرقة صغرى ، وإنما يعتبر فعله اختلاسا ، ومن خطف مالا من يد آخر لا يعتبر فعله سرقة صغرى ، وإنما يُعتبر فعله غصبا أو نهباً .

والاختلاس والنهب والغصب كلها صور من السرقة ولكن لا حدة فيها .
ومن أخذ متاعا من دار برضاء صاحبها وفي غير حضوره لا يعتبر سارقا .
أما السرقة الكبرى فيؤخذ فيها المال بعلم المجنى عليه ولكن بغير رضاه وعلى سبيل المغالبة ؛ فإن لم تكن مغالبة فالفعل اختلاس أو غصب أو نهب مادام الرضاء غير متوفر .

* * *

السرقة المعاقب عليها بالتعزير : — هي نوعان :

أولهما : يدخل فيه كل سرقة ذات حد لم تتوفر فيها شروط الحد أو درى الحد فيها للشبهة كأخذ مال الابن وأخذ المال المشترك ، ويستوى أن تكون السرقة في الأصل صغرى أو كبرى .

ثانيهما : أخذ مال الغير دون استخفاء : أى بعلم المجنى عليه ودون رضاه وبغير مغالبة ويدخل تحت هذا النوع الاختلاس والغصب والنهب مثل أن يأخذ السارق ملابس آخر خلعها ووضعها بجواره ، ثم يهرب بها على مرأى من المجنى عليه ، ومثل أن يخطف شخص من آخر ورقة مالية كان يمسكها بين إصبعيه ، وهذا النوع من السرقة لا حد فيه : أى لا قطع فيه لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا قطع على نباح ولا منتهب ولا خائن » .

* * *

ولا تخرج السرقات في الشريعة الإسلامية عن هذه الأنواع الأربعة ، ويطلق الفقهاء عادة لفظ السرقة دون تمييز على السرقة الصغرى ، وإذا تكلّموا عن السرقة وأحكامها فإنما يعنون السرقة الصغرى ، بينما يسمون السرقة الكبرى بالحرابة أو قطع الطريق ، أما ما عدا ذلك من نهب وغصب واختلاس فيطلقون عليه — بصفة عامة — لفظ الاختلاس .

والسبب الذى دعا الفقهاء إلى إطلاق لفظ السرقة على السرقة الصغرى دون تمييز أن عقوبتها قطع اليد ، وأن أكثر السرقات تقع على سبيل الاستخفاء : أى تقع سرقة صغرى .

والقاعدة العامة التى يسير عليها الفقهاء أنهم يعنون عناية تامة بالجرائم المعاقب عليها بحد أو قصاص : يبينون أركانها وشروطها ويفصلون أحكامها ولا يتركون صغيرة أو كبيرة إلا تعرضوا لها ، أما الجرائم المعاقب عليها بالتعزير فلا يعنون بها تلك العناية ولا يتعرضون إلا للمهم منها ، وما يتعرضون له يكتفون ببيان أحكامه مجملة ، وإن كانوا قد عنوا بالتعازير عامة فيما يختص بالعقوبات ، وحد كل عقوبة وسلطة القاضى وولى الأمر . ولعل عذر الفقهاء فى أخذهم بهذه الطريقة أن أكثر جرائم التعزير يترك لأولى الأمر تحديد الأفعال المكونة لها والعقوبات التى تقع على مرتكبها ، وأن هذه الجرائم يختلف النظر إليها باختلاف البلدان ونوع الحكومات ، فكان من المعلوم أن لا يهتم بتفصيل أحكام الجرائم التعزيرية كما تفصل أحكام الجرائم الثابتة ، وهى جرائم الحدود والقصاص ، خصوصاً وأن فكرة تجميع الأحكام التشريعية والأفعال المحرمة فى مجاميع تشر على الناس لم تكن قد ظهرت بعد .

ويجب أن نلاحظ أن الفقهاء حين يتكلمون على السرقة الصغرى يتناول كلامهم بالضرورة السرقة المعاقب عليها بالتعزير بنوعها ، إذ النوع الأول ليس إلا سرقة صغرى أو كبرى تختلف فيها شرط من شروط الحد ، ولأن النوع الثانى وهو ما يطلق عليه لفظ الاختلاس لا يختلف عن السرقة الصغرى إلا فى بعض الشروط التى يجب توفرها فى السرقة دون الاختلاس ، ولهذا كان الكلام عن السرقة شاملاً فى عمومته للاختلاس . ويمكننا أن نحصر أوجه الخلاف بين السرقة الصغرى والاختلاس فيما يأتى : —

(١) عقوبة السرقة القطع ، وعقوبة الاختلاس التعزير .
(٢) الركن المادى فى السرقة هو الأخذ على سبيل الاستخفاء ، وفى الاختلاس هو الأخذ دون استخفاء .

(٣) يشترط فى السرقة أن يكون المسروق فى حرز ، ولا يشترط ذلك فى الاختلاس .
(٤) يشترط فى السرقة أن يبلغ المسروق نصاباً معيناً ، ولا يشترط ذلك فى الاختلاس .

ونستطيع بعد أن عرفنا الفرق بين السرقة والاختلاس أن نقول بأن أحكام الاختلاس فى الشريعة تكاد تكون أحكام القانون المصرى فى السرقات المعتبرة جنحاً ، وإن كان ثمة فرق بين الشريعة والقانون فى بعض الحالات القليلة ؛ من ذلك أن القانون المصرى يعتبر الاختلاس الحاصل من متعهد النقل سرقة بينما يعتبره فقهاء الشريعة خيانة أمانة ، وهذا الفرق لا أهمية له لأن الجريمة من جرائم التعزير ، ولولى الأمر بما له من

سلطة اختيار العقوبة التعزيرية أن يعاقب على خيانة الأمانة بعقوبة الاختلاس أو بأية عقوبة أخرى .

وإذا وازنا بين أحكام الشريعة الإسلامية وأحكام القانون المصري فيما يختص بالسرقات فنجد أن الشريعة تعاقب على الأفعال التي يعاقب عليها القانون باعتبارها سرقة ، فالشريعة تعاقب على أخذ المال خفية « السرقة الصغرى » وعلى أخذه مغالبة : أى بإكراه وتهديد فى الطرق العامة وغيرها « السرقة الكبرى أو الحرايه » وعلى أخذه بغير استخفاء وبغير مغالبة « الاختلاس » أما القانون فيعاقب على اختلاس المال سواء كان الاختلاس بعلم المجنى عليه أو بغير علمه « أى سواء أخذ خفية أو فى غير خفية » مادام ذلك دون رضاء وبغير إكراه ، ويعتبر القانون الأفعال التى من هذا النوع جنحا . كذلك يعاقب القانون على الاختلاس مغالبة : أى بإكراه وتهديد فى الطرق العامة وغيرها ، وتعتبر الأفعال التى من هذا النوع جنایات .

ولقد كانت القوانين الوضعية تعاقب — حتى الثورة الفرنسية — على اختلاس منفعة الشئ وعلى اختلاس حق حيازته على اعتبار أن اختلاس المنفعة واختلاس الحيازة سرقة ، كذلك كانت هذه القوانين تخلط بين السرقة والتبديد والنصب ، وتعتبرها جميعا سرقة متأثرة فى ذلك بأحكام القانون الرومانى الذى أخذت عنه . أما الشريعة الإسلامية فإنها على قديمها وقد وجدت منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا لم تخلط بين سرقة الشئ والانتفاع به أو استرداد حيازته ، ولم تخلط بين السرقة والجرائم الأخرى الواقعة على الأموال كالتبديد والنصب .

وسنرى عندما نستعرض الأفعال المكونة لجريمة السرقة على وجه التفصيل أنها لا تختلف شيئا عما وصلت إليه أرق القوانين الوضعية الحديثة .

ولست أريد من هذا أن أبين للناس مدى دقة الفقه الإسلامى وصفاته ؛ وإنما أريد أن أبين للناس أن القانون الوضعى حينما يتطور مرة بعد مرة إنما يسير فى أثر الشريعة الإسلامية ويأخذ بمبادئها ، وحينما يقال إنه وصل إلى السكال يكون قد أوشك أن يبلغ فقط بعض مابلقته الشريعة . ولعل اليوم الذى تأخذ فيه القوانين الوضعية عن الشريعة الإسلامية قد أصبح قريبا ؛ بل أقرب مما يظن أكثر الناس .

أيها المحلفون !

لا ... لا الله لا الملك

[بوجهه الصريح المشرق ، وبليته التي وخطها الشيب إلا شعرات سوداء تحفظ في ستمه الرهيب عنفوان الأمل وشباب العزيمة . . . وقف « محمد علي » يومين في قفص الاتهام يترافع عن نفسه وعن شقيقة وإخوانه الخمسة في محاكمة كراتشي الشهيرة ، سنة ١٩٢١ ، أمام هيئة محلفين من خمسة أشخاص : اثنان منهم هندوكيان والأخرون مسيحيون أحدهم أوروبي . كانت جريمتهم أنهم اشتركوا في مؤتمر رأسه « محمد علي » زعيم مسلمي الهند قبل التقسيم وأصدر قراراً مدعماً بالقرآن والسنة يدعو المسلمين إلى مقاطعة وظائف الحكومة البريطانية في الهند وخاصة العمل في القوات المسلحة وقد استجاب المسلمون للقرار فاعتقل آلاف منهم ، ووقع الإنجليز في حرج شديد . . .

لم ينكر محمد علي التهمة ولكنه اعترف بها ، وجهر بحكم الله فيها . وما أتم مرافقته حتى استجالت القاعة محراباً خاشعاً ، واقشعر كل من فيها رهبة لهذا الرابض في القفص . . . وصدر الحكم فكان مفاجأة للجميع ، كان الكل ينتظر أن يدين محمد علي فيها مسلم أن يحكم « بالنفي المؤبد » ، فإذا هو حكم بالبراءة !

مات محمد علي (وهو غير مولانا محمد علي اللاهوري رئيس الأحمديّة) سنة ١٩٣١ عن ٥٣ سنة ودفن إلى جوار المسجد الأقصى الذي كان يحن إليه ويهيب بالمسلمين إلى الذود عنه ، بعد حياة عامرة بالجهاد في سبيل الله ، وبال دفاع عن فكرة الخلافة الإسلامية وأخوة المسلمين كافة .

إن هذه المرافعة صفحة غراء من تاريخنا الحديث ، وبرهان رائع على الحياة التي تجيش في كيان الأمة الإسلامية المغلوبة على أمرها [.

التحرير

قبل أن يوجه محمد علي كلامه إلى هيئة المحلفين التفت إلى ناحية مجلس المحكمة فقال : « ألا يمكن أن يجلس المحلفون ليكونوا مني في هذا الجانب ؟ إنني حتى الآن لم أر وجوههم . إنني أريد إغراءهم كما أغريت القوات المسلحة » (ضحك في المحكمة) . وظل ذلك أوعزت المحكمة إلى المحلفين أن يغيروا أماكنهم ، وكذلك القاضي غير وضع مقعده بحيث يواجه المتهمين .

ثم نهض مولانا محمد على في السكون الشامل موجهاً كلامه إلى هيئة المحلفين :
أيها المحلفون : قد رجوت القاضي الرئيس ليتيح لي أن أرى وجوهكم ،
إذ باستثناء واحد منكم لم يكن يتيسر لي ذلك ، ولقد قلت إنني أريد إغراء المحلفين ،
ولقد كان في الحقيقة من وراء ذلك مراد آخر ، ربما كان ثانوياً كما قد يقول
المدعى العام . لقد كان مرادى أن تكونوا بمثابة ستر بيني وبين السيدات
اللاواتي يجلسن الآن خلفكم ، وإلا فقد يزيد على المدعى العام تهمة (إغراء) أخرى
(ضحك) غير أنني ، على أى حال ، أرى أنه نتيجة لمحاولتي في الإغراء قد حولت القاضي
لناحيته اليوم . (ضحك) .

أيها السادة : أظن أنني سأخذ من الوقت ما أستطيع ، ولذلك أرى لزماً عليّ
أن أبين لكم أنني إن أردت الدفاع عن نفسي أو عن زملائي لتخطي حكم النفي المؤبد
أو المشقة أو السجن — ولا أدري ما الذي يدخره القاضي لنا — إنني إن أردت
ذلك ، لما كان لي في الإطالة عذر أبداً ، كلا أيها السادة ، فما كان لي أن أضيع
لحظة واحدة من وقتي ووقتكم لهذه الغاية .

إنني لا أبتغي أى دفاع ، وليس لدى ما أدفع به ، بل لا أرى حاجة إلى دفاع ،
لأننا لسنا نحن الذين نحاكم ، إنها الحكومة نفسها التي نحاكم ، إنه القاضي نفسه
الذي يحاكم ، إن نظام النيابة العامة بأجمله وسائر مواد القانون هي التي نحاكم ،
فلا مجال لسؤال حول دفاعي ، إذ هي قضية واضحة غاية الوضوح . وقد أبدت شكري
للحكومة في المحكمة الابتدائية لأنها تصدت للمرة الأولى وبوضوح سافر وأفسحت
لنا المجال لأخذ قرار حول موضوع محدد لدعوى واضحة بيّنة ، ذلك الموضوع المحدد
للدعوى البيّنة الواضحة هو :

هل ينبغي لشريعة الله أن تكون أهم لدى التابع البريطاني من قانون الملك —
القانون الوضعي — ؟ سموه صاحب الجلالة ، أو صاحب الجلالة الامبراطورية ، عظموه
بما شئتم له من تعظيم ، أظهروا له كل طاعة ، وقدّموا له وسعكم من الولاء ، احملوا
له غاية التوقير والاحترام ، أصيخوا السمع إن أردتم حتى لما يثار حوله من خرافات .
غير أن القضية التي نحن بصددتها هي : هل هذا الإجلال أو هذه الخرافات لها أن
تقف لحظة واحدة في طريق الولاء الذي يحمله الله كل إنسان . أيها السادة ، إنني

لا أفكر انفسى ولا أفكر من أجل زملائي المتهمين معى ، ولكنى أفكر لكم .
 إنه من سوء الحظ أن ليس بينكم مسلم واحد ؛ فثلاثة منكم مسيحيون واثنان
 هندوكيان ، ولكن ذلك لا يهم مطلقا ، فإننى إنما أخطب أناساً من البشر . إننى أخطب
 هندوداً فى الأعم الغالب ، لا أدري إن كنتم جميعاً هندوداً ، ولعل واحداً بينكم غير
 هندى — انجليزى مثلاً ! — ولكنه استقر فى الهند ليتخذ منها موطناً ، وهو على
 هذا الاعتبار يمكن أن يعد هندياً ، ولذلك فإننى أخطب على الأقل أكتثية منكم
 قدموا من بلاد مشبعة بالروح الدينية ، وهى تقليدياً بلاد روحية جاهدت خلال العصور
 لإعلان شأن الروح على الجسد .

أيها السادة ، إننا نسمع كثيراً عن التسامح فى هذه الأيام المستنيرة ، ولا أحسب
 أن أحداً حتى المدعى العام يخالفنى إن قلت إننا جميعاً بحاجة إلى هذا التسامح . إن
 الحكومة البريطانية لم تكلّ من ترديد قولها بأنها حكومة متسامحة ، وأن الحكم
 البريطانى حكم موطد على أساس التسامح ، ولست أظن أن هناك حكومة فى هذا العالم
 المتمدن فى هذا القرن الموفى على العشرين تجرؤ على القول بأنها تخالف قاعدة التسامح .
 ولكن ، ما التسامح بعد كل ذلك ؟ إنه كما ورد فى القول المشهور : « سيدى ، إننى
 أخالف كل كلمة مما ذكرت ، ولكننى سأقاتل لآخر قطرة فى دمي دون حقلك فى أن
 تقول ما تريد » ذلكم هو التسامح : أى أنه مطلوب حين يقع الخلاف ، وحيث يكون
 الناس على غير رأى واحد . وحيث يتخذ الناس وجهات نظر مختلفة جد متباعدة ،
 وإلا فلامعنى للتسامح ، ولكننى مع ذلك لا أنكر أن من الناس من يحمل فكراً
 خرقاء ، وللأسف كثير ما هم ، وأحسب أن المدعى العام وهو فرد من الناس لديه
 بعض أفكار فى غاية الحق ، ولا تزال تنتظر لئرى ماذا يحمل القاضى من الرأى ،
 وسنعلم ذلك بعدما أحمل على الصمت . وليس السؤال هنا ما إذا كان حكم الشخص
 صائباً أم خاطئاً ، فقد يكون فى أحكام الناس الغباء ، إلا أنه ، إذا ما أعطاك رجل
 أو هيئة من الرجال ضماناً لتحمل بحرية آراءك الخاصة وتطبيقها ، فإننى أعتقد أن من
 واجههم أن يلتزموا ذلك الضمان .

نريد أيها السادة أن يفهم العالم قضيتنا ، ونحب أن تذكروا أن القرار الذى ستتخذونه
 هنا لا ينحصر منتظروه فى الحاضرين فى هذه القاعة ، أو عشرات الألوف من سكان
 كراتشى . لقد قيل آنفاً إن القرار الذى اتخذناه فى مؤتمرنا الإسلامى لم يكن معنياً به
 الذين حضروه من بعض العلماء وبضعة آلاف من الناس . إنما اتخذ ليتلقاه عدد أكبر؛

وهذه المحاكاة كذلك تهم أكثر من مستعمي هذه القاعة ، أكثر من حضراتكم الخمسة دون شك بل هي في الحقيقة تهم العالم أجمع . إننا نبتغي حقنا في التمتع بحماية القانون لعقائدنا وتعاليمنا الدينية المتميزة ، ولتندم الحكومة فتقول : إننا قد رأينا خطأ سبيلنا (ملتفتاً إلى « مستر رُس أَلِستِن Ross Alston ») هذه هي الكلمات التي يريدنا صديقي مستر أَلِستِن لتكون آخر قولي ، وإنها لسوف تكون كذلك ، ولكن بالنسبة لما هو جدير بالحكومة أن تفعله (ضحك) ولكن هل ترى تقول الحكومة ذلك ؟ وهل هي ملتزمة عهدها في إطلاق حرية العقيدة ؟ أم أنها ستقول : كلا ! إننا أقوياء ، إننا أشداء ، إن لدينا مدمرات ، إن لدينا طائرات ، إن لدينا هذه المرافق الحربية جميعاً إن لدينا مدافع رشاشة — إننا قد دحرنا أقوى أمم أوروبا ، وإن كان في حلفنا — طبعاً — ستة وعشرون دولة ! (ضحك) وكذلك رجال الهند وأمواها وسائر موارها — ولكن هذه مسألة أخرى ! (ضحك) — فلا يمكننا التسامح حيال آرائكم وتكالييفكم الدينية . إنها إن قالت ذلك فهو شيء ، نفهمه ، ومهمتنا لذلك ليست الدفاع عن أنفسنا ، ولكن إظهار هذه القضية واضحة ، لأنها قضية وطنية ، لا ، بل هي أكثر من ذلك ، إنها قضية يتوقف عليها إلى حد كبير تاريخ العالم : هل كلمة البشر في هذا القرن المتحضر ألزم ولاء من كلمة الله ؟ إن القضية ليست « بين محمد على وستة آخرين من جهة والحكومة من جهة أخرى » ولكنها قضية « الله مع البشر » فهي لذلك بين الله والإنسان . هذه هي الدعوى ، والمشكل كله « هل سيكون السلطان لله على الإنسان أم للإنسان على الله ؟ »

أيها السادة ، لقد كنتم هنا ولم تكونوا المقصودين إذ أبيننا القيام حين طلب منا القاضى أن نقوم . لقد اتفق أن تكونوا هنا ، ولقد جهدنا دائماً في ألا نظهر للقاضى إلا كل احترام ، ولسنا من الحق بحيث نخلق مضايقات لا لزوم لها لإثارة القاضى واستفرازه ، إننا لا نحمل حقداً عليه ، وكل ما في الأمر أن ذلك كان لاعتبار احترام الإنسان مخالفة لاحترام لله ، وكما قال أخى في محكمة البداية ، وكما أقول لكم الآن إننا لا نعتبر الملك ملكنا بعد الآن ، إننا لا ندين بأى ولاء لأى إنسان يحول بيننا وبين حقنا في إخلاص ولائنا لله . ليس لدى كلمة أقولها ضد الملك بالذات أو العائلة المالكة ، ولكن عندما يكون الأمر أمراً « لله » ضد أية حكومة ! فإننى لا أستطيع أن أحمل أى احترام لهذه الحكومة . إننى لا أحترم حكومة لا تطلب منى أن يكون اختراعى الأول لله وشريعته . لذلك كانت القضية كلها في الحقيقة كما قلت بين الله والإنسان .

لقد عرض المدعى العام مرافقته بمهارة فائقة ، وعند ما تعرض لمعتقداتنا الدينية وأحكام الله ، كان حريصاً على تخطيطها بالسرعة الممكنة ، وقد كان يتزحلق على جليد رقيق ، فترك كل ذلك ظهرياً . إننى الآن أتقدم ، إننى أتحدى القاضى ليصدر قراراً فى هذه النقطة ، إنها ليست مسألة حقيقة تلك التى عليكم معالجتها أيها السادة المحلفون . فإذا عالج القاضى قانونه فى تقديره ، وحكم علينا ، وإذا اتخذت هيئة المحلفين فى هذه القضية — التى تمثلون فيها دور المحلفين — قراراً ضدنا ، وإذا هو استعمل حقه كقاضٍ بالنسبة للوقائع والقانون فى القضايا التى تعطون فيها آراءكم كمستشارين فحكم علينا غير معتبر التزاماتنا الدينية ، فعندئذ تتضح طريقنا . لا شأن عندي للعقوبة التى تنتظرنا ، ولا تحت أى مادة من مواد القانون ستحل بنا ، إذ هناك عدد من هذه المواد : ١٢٠ ب ، ١٣١ ، ١٠٩ ، ٥٠٥ ، ١١٧ وهكذا . . . وبالنسبة لهذه المواد والتهمة المتعددة ما دام يعينى أمرها ، فقد اختلط على الأمر جداً ، وإننى أحاول أن أحصى مجموع السنين التى سيجزم بها على (ضحك) إننى لا أملك سوى حياة واحدة ، ولا أدري إن كانت كافية لتشمل هذه السنوات العديدة ذ عوقبت بما أستحق (ضحك) .

ولكن ذلك لا قيمة له مطلقاً ، إن الذى أريد هو قرار من المحكمة نيابة عن الحكومة بأن محاكم الهند ليس فى مقدورها منح أية حماية لكل من يفعل مثل الذى فعلت — مع أنها تقر أن الذى فعلت أمر تكلفنى به عقيدتى ويأمرنى به ربى — إن الله بجلاله ينادى من علياء عرشه الخالد « أيها الإنسان الذى خلقت من علق ، ورفعت إلى ما هو فيه من القوة والمجد ، مهما تكن ، ومهما يكن لديك ، فإننى أنا الذى أعطيتك ، فاعبدنى ولا تعبد أحداً من خلقى دونى » فمهما يكن ما قد أحمله من احترام للملك ، فإننى لا أملك ولا أستطيع أن أخضع له حين يدعونى ألا أخضع لله أو أن أعصى أمراً من أمره (١) .

« يتبع »

(١) مترجمة عن مرافقته الأصلية باللغة الإنجليزية من كتاب Writings and speeches Of Moulana Mohammad Ali ، جمع السيد أفضل على . والحق أننا عانينا فى الترجمة صعوبة وحرجاً ، فإن العذوبة والسلاسة والروعة فى لغة مرافقه « محمد على » لا يمكن أن تترجم ، رحمه الله ورضى عنه وأرضاه .
التحرير

متى وكيف يقوم الحكم الإسلامي؟

للأستاذ السيد محب الدين الخطيب

قبل نحو ست سنوات انتشرت دعوة الإخوان المسلمين في ديار الشام ، وقويت بالشباب والنواب وحملة الأقلام ، وتجاوبت العواطف بين الإخوان المسلمين هناك والإخوان المسلمين هنا ، وكان لهم هنا وهناك صحيفتان يوميتان قويتان . وحل موسم الانتخابات لمجلس النواب السوري فتقدم الإخوان المسلمون هناك لحوض المعركة الانتخابية ، وكانت مصر تتلقى أخبار تلك المعركة من الشام — في الصباح المبكر ، وفي الضحى ، وفي المساء ، وقبل النوم — من أسلاك البرق ومن الهاتف (التليفون) وبكل وسائل المواصلات . وكان اهتمام الإخوان المسلمين في مصر بحركات هذه المعركة الانتخابية في الشام إن لم يزد على اهتمام الإخوان الذين في الشام فإنه لم يكن يقل عنه بلا ريب . ولاحظ القائد الشهيد أخى حسن البنا رحمه الله أن كاتب هذه السطور أقل حماسة لهذا الأمر مما كان يتوقع ، فجاءنى ذات مساء ، وجلس إلى جانب مكتبي في قلم تحرير صحيفة الإخوان اليومية في القاهرة وقال لى :

— إنى لاحظت أمراً عجيباً . إننا منذ تعارفنا وتعاوننا قبل عشرين سنة لم يحدث حادث أو تنزل نازلة إلا كانت قلوبنا متجاوبة في اتجاه واحد بلا تواطؤ ولا مذاكرة . والآن فإن هذه الانتخابات المحترمة معركتها في الشام يقوم بها إخوان لنا عرفناهم من طريقك ومن طريق صحيفة (الفتح) ، أو شباب يعدون أنفسهم أبناءك أو كأبنائك ، وفيهم عدد غير قليل من ذوى قرابتك ، وإن أحدهم كان يساكنك هنا في منزلك وطار لحوض المعركة في دمشق اهتماماً بها . وما منا إلا من هو مهتم بها كاهتمام إخواننا هناك ، إلا أنت فإنى أراك واقفاً تنفرج بدم الشيوخ ، وعهدنا بك أنك أكثر حماسة منا لكل ما نتحمس له .

فأجبتة : — إنى خائف من أن ينجحوا ، وأن تكون أكثرية النواب منهم ، فتكون النتيجة تأليف الوزارة منهم واضطلاعهم بمسئولية الحكم ! فبدت على وجهه أمارات الدهشة رحمه الله ، وسألنى :

— وهل هذا مما تخافه ؟ !

قلت : — أجل . . .

قال : إذن فإنى كنت مصيباً بالمجىء إليك الآن ، فإن اختلافنا إلى هذا الحد يحتم علينا أن نتفاهم .

فسألته : هل لو بلغ النجاح بالإخوان المسلمين في الشام إلى درجة أن تتألف منهم الوزارة ، سيتولون الحكم بالموظفين الموجودين في الوزارات والمصالح والدواوين ، أم سيعزلونهم ويأتون بموظفين من بلاد أخرى ؟
قال : طبعاً سيبقى الموظفون كما هم ، إلا من يكون ملوثاً بمخازى يؤاخذ به عليها القانون .

قلت : أنا لا أزعج أن الشكوى من الموظفين هناك بلغت إلى حد الشكوى من أمثالهم هنا ، ومنع ذلك فإن مصر الآن قدوة للشام والعراق وجزيرة العرب ، وكل ما أشكوه أنا وأنت من العيوب هنا قد سرت عدواً إلى هناك بمقياس واسع أو ضيق ، ومهما استعان وزراء الإخوان المسلمين برؤساء تغلب عليهم النزاهة فإن العيوب أفدح من أن تصلح إلا بقوة خارقة تتاح من عالم الغيب ، وهذا ما لا نرى الآن دلائله ، فكل عيب في أداة الحكم وسيرة الموظفين سيلصق بوزارة الإخوان المسلمين ، ونتيجة ذلك أنه سيوصم به الإسلام نفسه . هذه واحدة !

ثم سألته : هل وزارة الإخوان المسلمين ستتولى الحكم بهذه الأنظمة ، أم أعددتهم أنظمة إسلامية تحل محلها ؟

قال : لم تتمح لنا الفرصة بعد لإعداد أنظمة إسلامية ، ولم يتخصص أحد منا حتى الآن لهذه الدراسة . ولو فعلنا فإن الجو لا يلائم هذا التغيير ، ولا نجد الآن من يعين عليه .

قلت : إذا كان الإخوان المسلمون في الشام سيتولى وزارتهم الحكم بالأنظمة الموجودة وبالموظفين الموجودين ، فما فائدة الإسلام من هذا ؟ أنا أرى أن تحمل غير الإخوان المسلمين مسئولية هذا العبء أكثر فائدة للإسلام من تحمل الإخوان هذه المسئولية . وهذه الثانية .

ثم سألته : هل خوض هذه الانتخابات ، ثم الاندفاع بعد ذلك بما تدفعنا إليه ، هو في ذاته نظام من أنظمتنا ، أم هو أجنبي عنا وطارىء علينا ؟

قال : وإذا كان أجنبياً عنا ، فهل لدينا نظام غيره لائق بنا وليس بأجنبي عنا ؟
قلت : إن النظام الذى كان يأخذ به سلفنا ، وليس هو بأجنبي عنا ، ما برح معطلاً

منذ ألف سنة ، وكان معمولاً به في خير القرون : القرن الذي ربى النبي صلى الله عليه وسلم رجاله ، ثم الدين يلوهم ، ثم الدين يلوهم ، وآخر العهد به في صدر الدولة العباسية عندما كان يتولاها رجال ولدوا في دولة التابعين والتابعين لهم بإحسان . وهذا النظام هو الذي كان يقال له نظام أهل الحل والعقد . وهو على عكس النظام الأجنبي ؛ لأن نظامنا قائم على الاحتكام في الشئون العامة إلى خاصة الخاصة . أما النظام الأجنبي فقام على الاحتكام إلى العامة في التقديم والتأخير والرفع والحفض بين طبقة خاصة الخاصة . وإن هذا النظام الأجنبي فشل وأفلس وجرّ الولايات في كل أمة اعتمدت عليه ، ما عدا الإنجليز الذين هم أصحاب هذا النظام . ومع ذلك فإن له فيهم عيوباً لا ينكرونها ، وإن كانت أقل من عيوبه في غيرهم . أما نظامنا الذي عطلناه من ألف سنة ، أى منذ استعجمت دولة بنى العباس وتولاها مواليهم من الفرس ثم غلبهم من الترك ، فإنه — في المدة التي كان قائماً فيها ، وكنا نعتد عليه في دولتنا وكياننا — كان يأتينا بالخير كله ، وكنا به وبسائر أنظمتنا الأصيلة سادة الدنيا وخير الأمم والشهداء عليها . وما لم نرجع إليه بإعداد رجاله وتربيتهم من الآن على الأخلاق الضرورية له والتي لا يكونون من أهله إلا إذا كانوا من أهلها ؛ فإن كل محاولة لأخذ المسؤوليات العامة لا نتيجة لها إلا رئاسة أشخاص مناسم الإسلام من حيث لا يستطيعون أن ينفعوا الإسلام بشيء . ومع ذلك فإنني كما لا أكره أن يشغل أى وظيفة من الوظائف أى رجل من ذوى الأخلاق الحسنة ، وأفضله على من هو أقل منه فضائل ، كذلك لا أكره أن يشغل أى رجل من الإخوان المسلمين أى وظيفة وأى مركز في الحكومة ؛ إذ لا ريب عندي أنه يكون أنفع للناس من الآخر الذي لا يتجلى بمثل فضائله . أما أن تتقدم هيئة من الهيئات الإسلامية ، أو جماعة من الجماعات التي لها برامج إسلامية ، لتولى الحكم باسم الإسلام في نظام لا يعترف بسنن الإسلام وقواعده ، وبأناس لم يتربوا التربية الإسلامية الصحيحة ، فليس ذلك من مصلحة الإسلام .

والآن أعود فأقول بعد ست سنين من ذلك الحوار الأخوى الصميم : إن المسلمين مضى عليهم ألف سنة وهم مقتصرون من إسلامهم على المسجد ومظاهر رمضان ومناسك الحج ، وقد أهمل جمهورهم الأعظم آداب الإسلام في البيوت ، والأسواق ، والمجتمعات والأندية ، والدواوين والمحاكم ، وعطلوا في كل ذلك أحكامه بمقياس واسع في بعض الأمور ، أو بمقياس ضيق في بعضها الآخر . ألا يستطيعون أن يصبروا عشرين سنة أخرى يربون فيها جيلاً يعيش للإسلام وأنظمته ، لالنفسه ووجهته . ويعدون فيها لذلك الجيل أنظمة الإسلام وآدابه وسننه وقواعده وأحكام فقهاء الاجتماع والإداري

والمالى والدولى ، فضلا عن تنظيم فقه الالتزامات والعقود ، وفقه القصاص والتعزيرات والحدود . وأعظم من كل ذلك أن نتعرف إلى سنن الإسلام في أهدافه الملية وتوجيهاته المتعلقة بكيانه ومقاصده ومزاميه . إن هاتين الأمانتين : أمانة إعداد الجيل الآتى ، وإعداد النظام له ، إذا استطعنا القيام بهما فى عشرين سنة كان هذا أعظم عمل قام به المسلمون منذ ألف سنة إلى الآن . وإن يستطيعوا أن يقوموا بذلك إلا بعد تصحيحهم الأخطاء المدسوسة على التاريخ الإسلامى فى صدره الأول ، وبعد أن يتفرغ عشرات كثيرة من شبابهم للتخصص العلمى الدقيق فى فروع المعارف الإسلامية ، والبدء بكل شىء من أساسه الأول ، بشرط أن يكون للواحد منهم خطة إسلامية صحيحة مرسومة تتفق مع مبادئ السلف ، ونضمن بها الوصول إلى أهداف يلتقى عندها آخرون بأولنا ، فيتم بذلك البعث الذى ننشده .

وكل محاولة لاتكون بهذه النية ، ولهذا الشوط البعيد وبهذا القصد السديد ، وعلى هذه الطريقة الإسلامية المثلى ، فإنها تكون حينئذ لمصلحة فرد أو أفراد ، أو بعقلية الأحزاب كما كان يعرفها الناس فى جاهليتنا القريبة : أى إلى ما قبل أربعة أشهر . وهذا أمر لا يمت إلى البعث الإسلامى بأية صلة . ولما شاء من المسلمين ومن الإخوان المسلمين أن يفعل منه ما يشاء بشرط أن يكون على علم بأن الحكم الإسلامى لا يقوم إلا بالطريقة التى وصفناها ، وفى الوقت الذى يتحقق به نجاح تلك الطريقة .

« ... أقيموا دولة الإسلام فى صـدوركم تقم فى أرضكم »

مـسـمـى الرضـيـبـى

المتقبل للإسلام

(٢)

للأستاذ سيد قطب

إن الشيوعية تكتسح أوروبا اليوم وسوف تكتسح أمريكا غدا ، لا لأن مواردها المادية أكبر ، ولا لأن مقدرتها الإنتاجية أعظم ، ولا لأن تقدمها العلمي أكبر . . . لا لواحد من هذه الأسباب المادية جميعا ؛ ولكن لأنها تملك أن تعطي الغربيين فكرة عن الحياة ، أو هدفا للحياة ، لم تعد الحضارة الغربية تملك أن تعطيهم نظيره . فهي فكرة « تقدمية » بالقياس إلى الحضارة الغربية المادية : أي أنها تسمح بامتداد الحياة في ظلها حيناً من الزمن ، على حين تعجز فلسفة الحياة الغربية عن الامتداد وتعجز الحياة في ظلها عن التقدم .

ولكن الشيوعية كما قدمنا فكرة ينتهي تحقيقها في أمد قصير ، وتصبح هي الأخرى عاجزة عن الامتداد ، وتصبح الحياة في ظلها عاجزة عن التطور ، حتى في هذه الرقعة من الأرض ، التي تدين بالأفكار المادية عن الحياة . فكيف بها في الرقعة الأخرى التي نشأت في ظل حضارة ذات روح ، والتي تملك فكرة عن الحياة أكبر وأشمل من فكرة الشيوعية ، وأكثر قابلية للامتداد والتطور ، لما فيها من مرونة وسعة لاتوافران للفكرة الشيوعية ، بحكم ماديتها ، وحكم تحديد أهدافها ، وقصور هذه الأهداف عن أن تشمل كل مطالب الإنسانية في مستقبلها ؟ .

إن الشيوعية اليوم تؤدي دوراً هاماً في عالم الحضارة الغربية المادية — يتلخص ذلك الدور في ابتلاع حطام الفكرة المادية التي عاشت أوروبا في ظلها منذ الدولة الرومانية القديمة ، حتى استجالت أخيراً إلى هذا العقم ! ابتلاع هذا الحطام والوصول به إلى نهايته الحتمية الطبيعية . والشيوعية هي الخطوة الأخيرة والنهائية في خط سير الحضارة المادية . وهي تعترف بأنها الحلقة الأخيرة من حلقات « المادية الجدلية » وخلصتها أن كل نظام يعمل في طيانه من التناقضات ما يقضى عليه ، وينشئ نظاماً جديداً قائماً على انتصار

إحدى هذه المتناقضات — وهذا النظام الجديد يحتوي بدوره متناقضات أخرى تقضى عليه وهكذا ... إلى أن ينتهى الأمر إلى الشيوعية ، فتكون هى خاتمة المطاف !

ولقد كنا حريين بأن نصدق هذا ونؤمن به ، لولا أننا نؤمن بأن الحياة متجددة أبداً ، متطورة أبداً ، وأنها لن تقف عند الخطوة التى يريد الشيوعيون لها أن تقف عندها ! فلا بد من فكرة أخرى تسمح للبشرية بالامتداد فى ظلها ؛ لأن هذه البشرية لا تستغنى أبداً عن فكرة تؤمن بها ، وتجاهد لتحقيقها .

أقد كانت الدفعة للمادية العنيفة التى انتهت بالشيوعية فى الحضارة الغربية وليدة رد الفعل العنيف لتزمت المسيحية كما صورتها الكنيسة فى القرون الوسطى ، وكان إلحاد العلم بالدين رد فعل كذلك لسلوك الكنيسة مع العلماء ، وليس قانوناً من قوانين الحياة !

فإذا انتهت الموجة المعارضة إلى غايتها — وهى الشيوعية — فإن البشرية ستعود بعد الموجتين إلى نوع من الاعتدال والتوازن ، لاتبجده فى روحانية المسيحية الخيالية ، ولا فى مادية الشيوعية الجامدة ؛ ولكن فى فكرة وسط عن الحياة : فكرة تحتضن الروحية الصافية الصادقة ، وتحتضن الواقعية المادية المعتدلة ، وتصوغ منهما عقيدة للضمير ونظاماً للحياة ، وأحلاماً دائمة للبشرية كلما حققت منها حلماً ارتقت فى الأفق إلى حلم جديد .

والفكرة الوحيدة التى عرفتها البشرية ، وتتحقق فيها هذه السمات التى أسلفنا هى فكرة الإسلام عن الكون والحياة والإنسان^(١) .

ولقد كانت أوروبا حرة بأن تستمتع بثمار تلك الفكرة منذ أجيال ، لولا أنها — لأسباب تاريخية — وقفت لها بالمرصاد فى إبان مدها الأول ، عندما وصل الإسلام إلى حدود البرانس ، ولم تكتف بهذا بل ساقها التعصب العنيف إلى طردها طرداً قاسياً من الأندلس .

ولعل هذا كان لأمر يريد به الله . فالبشرية ما كانت قد تهيأت كلها لاستقبال هذا النور والانتفاع به فى أول قيض . ولم يكن لها بد من تجارب طويلة ، ومن رد فعل عنيف للترمت الأول والجهالة الأولى ، يقذف بها فى عالم المادة بعنف ، لتبدع فى هذا

(١) صوّرت هذه الفكرة إجمالاً فى كتاب « العدالة الاجتماعية فى الإسلام » وموعدى بتفصيلها كتاب مستقل عنها بعون الله .

العالم ماشاء الله أن تبدا ، ولنتها بتجارها الروحية ، وبتقدمها العقلى ، وبتفوحاتها العلمية ، لاستقبال ذلك النور فى دورة أخرى من دوراته ، وموجة تالية من أمواجه ، بعد أن تكون قد انتهت فى الحقل المادى إلى ذلك الخواء الذى تستشعره فى الحضارة المادية ، فتعوز منه — إلى حين — بالشيوعية لتعانى منها بعد فترة خواء أعظم ، وظمأ أعنف وشوقا إلى توازن معتدل ، بعد الأرجحة العنيفة بين الروحانية الغالية ، والمادية الطاغية وبعد طول التعلق فى الهواء بين الأرض والسما .

وعلى أية حال فنحن لانشك فى أن قيادة البشرية صائرة إلى الإسلام ، لأنه لولم يكن موجوداً ، لبحثت عنه الإنسانية ولابتدعت نظاما يشبهه ، بعد انحسار الموجتين السابقتين ، اللتين كانتا على طرفى نقيض ، وكانت ثانيتها رد فعل عنيف لدفعة الأولى العنيفة . وقد انتهت موجة المادية العنيفة إلى غايتها أو أوشكت . وما هى إلا أن تجتاح الشيوعية ما تبقى من رقعة الحضارة الغربية ، حتى تصل إلى ذروة مداها العليا ، وحتى تفتش البشرية بطبعها عن زاد جديد ، ينقذها من الخواء الروحى الذى لانطقه فطرتها إلا إلى أمد محدود .

مما تقدم تتبدى لنا ضخامة الواجب الذى ينتظر العالم الإسلامى . إنه واجب للبشرية كلها فى أخرج أوقاتها . فهذه البشرية التى أوصدت أبوابها فى وجه هذا الدين يوم أن جاءها فى موجته الأولى ستصبح فى أشد حالات اللهفة لمن ينقذها من الخواء ، ويقدم لروحها الزاد ، وهى أقدر على إدراك فسكرة الإسلام مما كانت يوم أوصدت دونه الأبواب . وواجب العالم الإسلامى إذ ذاك هو إمدادها بذلك الزاد فى الصورة التى تتفق مع تجاربها كلها خلال أربعة عشر قرناً .

إنه واجب ضخم يقتضى النهيؤله منذ اليوم والاستعداد . ولما كانت النفس الإنسانية بفطرتها ميالة لأن ترى الفسكرة من خلال الواقع ، وتتعلل العقيدة فى صورة عمل ، وتحكم على المثل والمبادئ بما حققته فى عالم الأرض من نظم وأوضاع . فإن البشرية يوم تتطلع إلى فجر جديد ينقذها من ظلام المادية وجفافها ، ستبحث عنه فى صورة مجتمع إنسانى ، لافى صورة نظريات مثالية . . وهنا يبرز الواجب الذى تلقىه السماء على عاتقنا . واجب أن نكون نحن أنفسنا تأويلاً حياً لعقائدنا وأفكارنا ، وأن يكون نظامنا الاجتماعى ترجمة عملية لهذه العقائد والأفكار كما يقع عليها نظر الإنسانية الحائرة فى اللحظة التى تتلفت فيها إلى نبع جديد .

هذا كذلك تبدو ضخامة الجربة الإنسانية التى يرتكبها أناس من الشرق والغرب

حينما يحاولون صرفنا عن منابعنا الأصلية ، لتمرغ في حماة المادية البائسة وهي في أيامها الأخيرة .

إن هؤلاء لا يؤذوننا نحن فقط ؛ إنما يحاولون حرمان البشرية ذلك النبع الوحيد الباقي الذى يمكن أن تثوب إليه عندما يبلغ بها الظلم إلى غايته ، وحينما تسير إلى نهاية الدرب المظلم المغلق ، فترتد باحثة عن النور في أفق طليق .

وكل حجتهم أن المادية هي التى أنشأت الحضارة الصناعية . . كأننا يوم أن تثوب إلى عقيدة منجذبة المصانع وللعامل ، ونهجر المدن والدور ، ونرتد إلى الكهوف والمغاور ، أو نركب الأفيال والجمال ! وهي سذاجة مضحكة لولا أنها تتلبس في الغالب بسوء النية وفساد الضمير !

إن الإسلام بالذات كان ثورة تحريرية . حررت الفكر كما حررت الروح . حررت الفكر من الوهم والخرافة ووجهته إلى تنمية الحياة في الأرض ، دون تخوف من الطبيعة التى غقدت بينه وبينها أواصر الصداقة والقربى وصورتها له عوناً مساعداً لا عدواً مناوئاً . وحررت الروح من الطبوط والتردى وأطلقتها يرتاد الآفاق العليا وجذب الحياة كلها إليها . لذلك نمت الحياة في ظله نمواً سريعاً ، ومن هذه الحياة النامية في ظله استمدت أوربا في جهالتها ، وأقامت الأساس الذى نهضت عليه حضارتها . . كل ما في الإسلام من ميزة أنه يشد هذه الحياة النامية على الأرض إلى آفاقها العليا في السماء ، كي لا تتردى في حضيض المادية المطلقة ، فتصاب بالجفاف والجواء الذى انتهت إليه حضارة الرجل الأبيض ، وهي في أوجها من الناحية الصناعية والإنتاجية ! ولقد فتح الإسلام في موجة المد الأولى ما شاء الله أن يفتح من الأقطار والأمصار باسم هذه الثورة التحريرية التى كان يحمل لواءها ، لا بقوة السيف الحديدية أو قوة الاقتصاد المادية . وما كانت هذه القوة وحدها لتنساج به في فخاخ الأرض بمثل هذه السرعة التى لا تبلغ إلى شئ منها سرعة الاجتياح «المتلري» في العهد الأخير ، مع التفوق الساحق للجيش «المتلري» في بدء الحرب سواء في السلاح أو في الرجال أو في الخطط الحربية ، هذا التفوق الذى لم تسكن جيوش الإسلام تتمتع بشئ منه ، فيما عدا بطولة الروح دائماً ، وعبقريّة القيادة في بعض الأحيان .

أما التفسير الطبيعي الشامل لقوة انسياح الإسلام ، فهو كامن في طبيعة هذه العقيدة ، وفي طبيعة النظام الذى ينبع منها . في تلبية هذه العقيدة للغة البشرية تلبية كاملة وفي الثورة التحريرية التى تمثلها . في ذلك الزاد التقدمى الذى تحمله للإنسانية وتلبى به رغبتها الدائمة في التطلع إلى تحقيق حلم بعد حلم في واقع الحياة .

ولقد كان رجال وقواد وشعوب ينضمون إلى جبهة الإسلام راضين متطوعين ، لما كانوا يلمسونه من العدالة والتوازن في ظل النظام الإسلامى الذى طبق في بلاد مجاورة ، ومن التحرر الوجدانى والاجتماعى السائد في هذا النظام .

يقول « سير . ت . و . » أننولد في كتابه « الدعوة إلى الإسلام » ص ٥٣ من ترجمة حسن إبراهيم حسن وزميله نقلا عن الأزدي ص ٩٧ :

(ولما بلغ الجيش الإسلامى وادى الأردن ، وعسكر أبو عبيدة في فحل ، كتب الأهالى المسيحيون في هذه البلاد يقولون : « يا معشر المسلمين ، أنتم أحب إلينا من الروم ، وإن كانوا على ديننا ، أنتم أوفى لنا ، وأرأف بنا ، وأكف عن ظلمنا ، وأحسن ولاية علينا . ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا »)

ويقول في ص ٥٤ من تلك الترجمة نقلا عن البلاذرى ص ١٢٧ :

« وغلق أهل حمص أبواب مدينتهم دون جيش هرقل ، وأبلغوا المسلمين أن ولايتهم وعدلهم أحب إليهم من ظلم الإغريق وتعسفهم »

ولم يكن العدل والحرية وحدهما اللذان يدفعان بالجموع إلى هذا الدين الجديد بل كانت الفكرة الواضحة البسيطة التى يحملها إلى الناس في صورة عقيدة تدفعهم إلى فتح أبوابهم له ، ولو لم يعتنقوه لسبب من الأسباب الخاصة . المهم هو الثقة بهذا الدين ونظامه ، واليأس من النظم الأخرى التى كانت سائدة في زمانه . وفي ذلك يقول :

« ج . ه . دينسون » في كتابه Emotions as the Basis of Civilisation (العواطف كأساس للحضارة) :

« ففي القرنين الخامس والسادس كان العالم المتمدين على جرف هار من الفوضى ؛ لأن العقائد التى كانت تعين على إقامة الحضارة كانت قد انهارت ، ولم يك ثم ما يعتد به مما يقوم مقامها . وكان يبدو إذ ذاك أن المدنية الكبرى التى تكلف بناؤها جهود أربعة آلاف سنة مشرفة على التفكك والانحلال ، وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية ؛ إذ القبائل تتحارب وتتناحر ، لا قانون ولا نظام . أما النظم التى خلقتها المسيحية فكانت تعمل على الفرقة والانهيال ، بدلا من الاتحاد والنظام ، وكانت المدنية كشجرة ضخمة متفرعة امتد ظلها إلى العالم كله . . واقفة تترنح ، وقد تسرب إليها العطب حتى اللباب . . وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذى وحد العالم جميعه » (١) .

(١) عن كتاب الإسلام والنظام العالمى الجديد لولاي محمد على ، ترجمة الأستاذ أحمد جودة السحار .

نحن الآن في موقف قريب الشبه بذلك الموقف الذي وصفه الكاتب في القرنين الخامس والسادس . وإذا كانت المسيحية قد استنفدت أغراضها وصارت إلى ماصارت إليه في ذلك الأوان ، فهي اليوم أعجز من أن تكون عاملاً إيجابياً في حياة البشرية . وهي مع ذلك أرق العقائد الأخرى التي تعرفها البشرية اليوم . وإذن فلا يبقى إلا الإسلام ليعمل من جديد ، كما عمل في القرن السادس ، يوم أن تلجأ البشرية إليه ، هاربة من الجواء الذي تحسه اليوم بقوة في الحضارة الغربية ، فتهرب منه إلى الشيوعية ، التي ليست سوى الامتداد الطبيعي لهذه الحضارة ، وليست إلا « تصبيرة » لمدى قصير . حتى في أرض الحضارة المادية كما أسلفنا .

وإذا كان فساد العقائد وفساد النظم في القرن السادس قد جعل الناس يدخلون في دين الله أفواجا فخفاف الحضارة المادية وخواؤها ، وعجزها عن إمداد البشرية بأهداف تعيش من أجلها ، وأحلام تقود خطاها في مصاعد الحياة .. سيدفع بالناس من جديد إلى الإسلام ، متى وجدوه مبلوراً في نظام ، ممثلاً في مجتمع ، مترجماً في حياة .

وهذا هو واجبنا في هذا الجيل ، وفي الجيل الذي يليه . فأقصى مدى أتصوره للحد الشيوعي لن يتجاوز جيلنا هذا الذي نحن فيه وأوائل الجيل القادم ، إذا سارت الأمور سيرتها الحالية . ولن يكتمل هذا القرن العشرون الذي نحن فيه حتى تكون الشيوعية قد سيطرت على عالم الحضارة الغربية بما في ذلك أمريكا .

وعندئذ ينتهي صراع الشيوعية والرأسمالية ، اللتان هما خطوتان في فكرة واحدة هي الفكرة المادية . لا فكرتان مختلفتان ، كما تحاول كلتاها أن تزعم في معرض الدعاية .. وعندئذ يبدأ الصراع الحقيقي بين الفكرتين الرئيسيتين في العالم : الفكرة الإنسانية — ويمثلها الإسلام — والفكرة المادية — وتمثلها الشيوعية في آخر مراحلها ، كما مثلتها الدولة الرومانية ومثلتها أوربا وأمريكا بكافة النظم التي سادت فيها — وفي نهايتها هذا النظام الشيوعي ... ونحن لانشك في النتيجة الأخيرة لهذا الصراع . ولانرتاب لحظة في أن العاقبة للإسلام ، بحكم أنه فكرة تسمح للحياة بالنمو الدائم في ظلها ، ولاتحدها بهدف واحد محدود «سيادة طبقة» ، وبحكم أنه نظام يسمح لجميع قوى الإنسانية أن تعمل ، ويمنح الزاد المناسب لكل جوعة من جوعاتها : فكرية كانت أو روحية أو مادية ، وبحكم أنه نظام عالمي يمكن للبشرية كلها أن تستظل بلوائه . والفكرة الأكبر هي التي تنتصر ، والنظام الأشمل هو الذي يبقى .

(للبحث بقية)

؟ !

حين تكون الأزمة أزمة رأى ، وخلافاً في أمر واضح محدد ، لا يصعب أن تعالج ، ولا تلبث أن ينهيها الرأى الراجح المسدد ، فإن تباين الآراء سمة الفكر الحى ، وبرهان التعاون العميق ، وهو السبيل إلى كشف وجوه الخير والشر في كل مسألة ، وتبين النفع والضرر في اختيار الطريق وأزمة الرأى دائماً أزمة سافرة المعالم ، بينة المدخل والمخرج ، إذا عرف أولها فهم آخرها ، والسبيل بين أولها وآخرها الحجة والفهم ، وآخرها لا يعدو خطره أن يصر كل على رأيه ، وهو خطر محدود ما دامت الأنفس سليمة ، وما دامت الطويات مستقيمة ، فإن اختلاف الرأى لا يفسد لاود قضية .

وإذا صح هذا في الدائرة الواسعة بين سائر الناس فهو أصح وأولى في كل مجموعة تربطها من وراء العقل آصرة العقيدة والروح ، ويحكم حركاتها نظام تباينت عليه ، وتعاهدت أن يجعل كل واحد فيها لعقله الصغير لجأماً من عقل المجموعة الكبير « وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم »

أما حين تكون الأزمة أزمة نفسية سببها التواء بعض الأنفس على ظن غير حسن ، أو وهم خادع ، أو هوى مستتر ، فإن اختلاف الرأى حينئذ لا يكون هو كل شيء في المسألة ، وأخطر ما فيه أنه قد يلتوى سبيله بالتواء هذه الأنفس ، فيصور في غير صورته ، وينقل من الحجة والإقناع إلى الحيلة في الخفاء بل ربما كانت أزمة الرأى حينئذ أزمة مفتعلة تنفس فيها بعض الأنفس المتعبة

وإذا كان هذا خطراً في الدائرة الواسعة فإنه أشد خطراً وأنسكى أثراً في كل مجموعة تميزت بالحب الناصع الحار ، والخلق السامى الكريم ، والنظام المحكم المتين .

وإذا كان علاج أزمة الرأى في تبادل الآراء والنزول على الرأى السديد ، فإن دواء الأزمة النفسية لا يكون إلا في تجاوب هذه الأنفس وإزالة كل حجاب بينها إن سوء الظن والوهم يعالجهما الاتصال المباشر ، والتثبت من كل شائعة ، والتزام النظام ، والحذر الدائم من أعداء الحق المتربصين ! أما الهوى المستتر فدواؤه في أحد أمرين : إما أن يترب صاحبه إلى الله توبة نصوحاً ، أو ينطوى على نفسه بعيداً ويفسح للطيبين الطريق .

يا جند الله : أنتم والحمد لله كثير ، وأنتم وحدكم أعصاب هذا الجسد الجديد فامضوا على بركة الله غير عابئين ، وطاردوا العيب بالجسد ، والظلمة بالنور . ونور الله لا توزعه المصاييح ، ولسكن تحمله قلوب الموصولين به : « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » .

الدين والمجتمع

للأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

أستاذ الشريعة بكلية الحقوق بجامعة القاهرة

تمر الأمة الإسلامية هذه الأيام بفترة من حياتها الحالدة يكثر فيها الحديث عن الدين؛ فمننا من يدعو في إلحاح إلى أن الرجوع إليه صار ضرورة لا مناص منها ، بعد أن قاسينا الأمرين من الانحراف عنه زمنا طويلا ، وبعد أن أظهرنا قانون التطهير على ما صرنا إليه من انحلال في الخلق وفساد في الضمير وبُعد عن سواء السبيل إلى أقصى الحدود . على حين أن هناك آخرين لهم خطرهم ، ينادون بأن من الخير التحرر من الدين وتعاليمه كثيراً أو قليلاً فيما تتخذه لأنفسنا من نظم وتقاليد .

وقد كثر الحديث في ذلك هنا وهناك من أقطار العالم الإسلامي حتى صار مملوفاً لا غناء فيه . بل إننا نحس دعوة قوية تأتينا من الغرب للعودة إلى الدين ، بعد ما ثبت من فشل النظم والفلسفات الأخرى في علاج مشاكل العالم ، بل بعد أن ثبت أن هذه النظم والفلسفات السياسية والاجتماعية زادت هذه المشاكل تفاقمًا ، وزادتها مشاكل أخرى لها حِدَّتُها وأخطارها على السكّان العالمى كله .

أجل إن ضعف الدين في أوروبا ، وما كان من نتيجة حتمية له من ازدهار المادية في كل نواحي الحياة ، وقيام الحياة على هذه المادية في الفلسفة والعقيدة وسائر النظم الحيوية ، مكن الأثرة والأنانية في النفوس ، وأطلق لها العنان فصارت هي الحاكم المطلق ، وكان أن انحلت عرى الأخلاق عروة بعد عروة ، الأخلاق التي تستند إلى الضمير وما هو روحى وجميل ونبيلى فى الإنسان ، وأن اعتقد كل إنسان — ومثل ذلك كل دولة — أنه محور الحياة فما خلق العالم إلا من أجله ، وعمل الجميع على استغلال القوة والنفوذ والسلطان لمنفعته وحده وإن جرَّ هذا إلى شقاء المجتمع والأمة .

ومن أجل هذا توالى الحروب والثورات ، وأخذ العالم يدمر نفسه بنفسه ، وصار قاده يسوقونه للخراب وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ! وليس مرد ذلك كله إلا إلى إهمال الدين وهو العامل الأول لقيام المجتمعات والدول الصالحة للحياة الحقة السعيدة ، وبند الأخلاق الطيبة التي مبعثها قوى النفس النبيلة القدسية ، وبدونها يكون الإنسان شيطانا يريد أن يعمل على تدمير نفسه والعالم كله .

حقاً إننا نسينا جميعاً ، هناك في الغرب وهنا في الشرق ، أن الدين هو القوة الفعالة التي خلقت من العالم المتنافر والمتمزق فيما مضى عالماً جديداً قوياً متماسكاً ، وأرسى قواعد الحضارة على أسس قوية متينة صالحة للبقاء ، وجعل للناس غاية يعملون لإدراكها متعاونين متحابين ؛ ماداموا جميعاً إخوة وليس لهم إلا إله واحد كل العالم معبده ، لا فضل لبعضهم على بعض إلا بالتقوى ، وبمقدار ما يقدم من خير لإخوته في الدين والإنسانية .

وكان للإسلام من بين الأديان جميعاً الفضل الأكبر في ذلك كله ، ولا عجب أن من أصوله أنه لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى كما يقول رسوله الكريم ، وجاء في قرآنه العظيم : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . إلى آيات وأحاديث أخرى لا حصر لها ، وكلها تحض على التقوى والعدالة بالنسبة للفرد والمجتمع ، ووجوب اتباع العقل وهدى الضمير النقي الذي لم تتحرف به الأهواء والشهوات عن الطريق السوي ، وتصوير الدنيا بأنها متاع زائل وبلاغ حياة خالدة أفضل .

إن مصر بلد إسلامي كما يقول الدستور ولكنها — إذا نظرنا إلى الجبهة الغالبة من ولاية الأمور وذوى الرأى — ليست بلداً متديناً إن أردنا بالدين معناه الحقيقي ، هذا المعنى الذى يتمثل في التربية القويمة والخلق القوى اللذين ينشئان رجالاً جديرين بوصف الرجولة ، ومواطنين يعملون لحير الوطن والإنسانية بعامة .

لو كانت مصر بلداً متديناً ، أو لو كان ولاية الأمور فيها في العهود الماضية متدينين ، لما رأينا المخازى والمنكرات التي تطالعنا بها الصحف منذ شهور وشهور ، والتي انعكس في حمايتها وأقذارها رجال العهد السابق من حاشية الملك الخلوع ومن إليهم ممن جعلهم الزمن كبار رجال الدولة والوطن ! لو كانت مصر بلداً يعرف للدين حرمة ، وأنه العامل الذى لا غنى عنه لقيام الدولة والأمة ، لما كنا بحاجة « لقانون التطهير » الذى نرجو أن ينال بالعقاب الأليم الرادع أولئك الذين خانوا الأمانة والدين والوطن ، وداسوا بأقدامهم كل كرامة وخلق ومعنى نبيل جليل !

إن الدين يأمر بعبادة الله وحده دون أحد من خلقه مهما عظم أمره وكبر سلطانه ، وبالعبادات التي تزكى النفس وتطهر القلب وتحجب في المثل العليا . ولكن نقصد به ، إلى جانب ذلك كله ما يزرعه في قلب المؤمن به من العقيدة الحقة والضمير القوى ، هذا الضمير الذى هو منبع الأخلاق وحارسها والدعامة التي تقوم عليها ، والذي هو

قبس من نور الله كما يقول الغزالي ومِسْكُوِيَه ، وهو الذى يخاطبه جان جاك رُوسُو فيقول :

«أيها الضمير، أيتها القوة الفطرية الخالدة، أيها الصوت السماوى، أيها القائد الأمين للانسان الجاهل المحدود، أيها القاضى الذى لا يضل فى تمييز الخير من الشر ! إنك أنت أشرف جزء فى طبيعة الإنسان، وإنك الفضيلة من أعماله . بدونك لا أشعر بما يرفعنى عن الحيوان، ما عدا الميزة التى تجعلنى أضل فى ميدان الأخطاء؛ وهى أداة الفهم التى لا قاعدة لها، والعقل بدون مبادئ يسير عليها» .

وقد عرف الفلاسفة والمفكرون الاجتماعيون للدين أثره القوى فى الأخلاق، وأنه منها الدعامة التى يقوم عليها البناء، ولذلك عندما حاول فريق منهم، على رأسه «إميل دوركايم» ، إقامة الأخلاق على العقل، لا على أصول الدين ومسلّماته، رأوا أنه قبل أن تنزع من الأخلاق ما تستند إليه من الدين فيجعل لأوامرها ونواهيها قداسة أى قداسة ! يجب أن نجد للأخلاق دعامة أخرى تسدّ مسدّد الدين، حتى يبقى للتشريع الأخلاقية قوتها وقداستها . ولكن، هيهات أن نجد هؤلاء الفلاسفة الاجتماعيون قوة أخرى، غير الدين، تكون أساساً للأخلاق !

هذا، ومن هم المسؤولون عما صرنا إليه من هذا الحال الخجل الأليم؟ وما السبيل للخروج من هذه الحياة الماحنة الآسنة الضالة إلى الحياة الجادة الدافقة الرشيدة، الحياة الجديرة بأمة يقول عنها القرآن إنها خير أمة أخرجت للناس؟

لعلنا لا نعدو الحق إذا قلنا بأن المسؤولين فى الدرجة الأولى عن هذا كله، هم القوّة على معاهد التعليم فى الأزهر ووزارة المعارف والجامعة، إن هؤلاء الذين إليهم مقاليد التربية والتعليم فى معاهدنا، لم يخرجوا لنا، بما اتخذوه من أهداف واصطنعوه من وسائل، الشباب القوى بدينه وخلقه والمعتز بنفسه وكرامته .

إن هذا التعليم قد أفلح فى تخريج أجيال من الشباب ليس منهم، إلا من عصم الله، إلا من هو — كما يقول شاعر الإسلام محمد إقبال — مصقول الوجه، مظلم الروح مستنير العقل، كليل البصر، ضعيف اليقين، كبير اليأس . إن هؤلاء الشباب ينكرون نفوسهم ويؤمنون بغيرهم، لأن المدرسة أو المعهد قد نزع منهم العاطفة الدينية، فأصبحوا وقلوبهم قاسية، وعيونهم لا تعف عن المحارم، وقلوبهم لا تذوب بالقوارع،

وكل ما عندهم ، من علم وفن ودين وسياسة وعقل وقلب ، يطوف حول الماديات ؛ فأفكارهم لا تساوى شيئاً ، وحياتهم جامدة متعطلة واقفة !

وليس من سبيل للخروج من ذلك ، إلا بأن تقوم ثورة في الأزهر والجامعة ووزارة المعارف ، تصاحب الثورة الكبرى المباركة التي خلصتنا من العهد البائد المقيت ، والتي أقام الله تعالى بها دليلاً حسيّاً على وجوده غير الأدلة التي تزخر بها كتب التوحيد . هذه الثورة تقوم على العهد الماضي في التعليم : أهدافه وغاياته ووسائله ، وتضع للتربية والتعليم غايات مجيدة شريفة ووسائل أخرى فعالة لتحقيق هذه الغايات ؛ وبهذا تكون وزارة المعارف للتربية والتعليم معاً ، لا للتعليم فحسب كما هو الحال الآن .

وهذه الثورة التي ندعو إليها ، يجب أن تكون غايتها تكوين جيل جدير بحمل أمانة الدين والوطن والأمة الإسلامية ، وأن تعمل على إقامة التعليم والتربية على أساس من الدين ومثله العليا والخلق القوى الكريم . نريد من معاهد التعليم والتربية تخريج جيل يرى أن المؤمن الضعيف هو الذي يتعلل بضرورة مسايرة الأحوال الموجودة وإن كانت فاسدة ، والخضوع للأوضاع القائمة وإن كانت مقلوبة . كما يرى أن المؤمن الحق هو قضاء الله الغالب وقدره الذي لا يرد . وفي قيام ثورة الجيش ، بفضل بضعة من رجاله المؤمنين المخلصين دليل على إمكان ذلك أى دليل !

نريد من التعليم أن يخرج لنا جيلاً من الشباب يمتاز — كما يقول إقبال — بين أهل الشك بإيمانه وبقينه ، وبين أهل الجبن والخوف بشجاعته وقوته الروحية ، وبين عباد الشهوات والمنافع بتجرده من الشهوات وتمرده على موازين المجتمع الزائفة ، وبين أهل الأثرة والأنانية بإيثاره وكبر نفسه ؛ فهو لذلك كله يعيش برسائله ولرسائلته .

وسيقن هذا الجيل ، إذا نجحنا في إعداد وإيجاده ، أنه لم يخلق إلا ليوجه العالم للطريق المستقيم ، لأنه صاحب الرسالة والعلم اليقين ؛ فليس مقامه أن يقلد ويتبع ، بل أن يؤم ويقود . وإنه يمثل هذا الجيل انتشر الإسلام فيما مضى ، وكانت له دولة دانت لها أقطار العالم ، وصار قوة يخشاها العالم كله ويعمل لها أكبر حساب .

أما إن استمر الحال على ما نحن عليه — لا قدر الله تعالى — فسنظل أمة لا خطر لها ، وسيظل الفساد مستشرياً في الأداة الحكومية وسائر مرافق البلد ، مهما أخذ قانون التطهير المجرمين بالنواصي والأقدام . فإن شجرة الفساد لا تزال قوية الجذور ، كثيرة الأغصان والفروع ، وخصبة تعمل دائماً على إكثار المفسدين خونة الوطن والدين .

لذلك أرى أننا بحاجة ، مع ماتقدم كله ، إلى لجنة قوية مختارة من أطيب عناصر الأمة ورجالاتها ، ويكون عملها تطهير العقول من الإلحاد ، والقلوب من الأنانية والشره ، والنفوس من الخوف والجبن والنهالك على متاع هذه الحياة على حساب الدين والوطن وبنيه .

وبعد ! يجب أن يتعاون رجال الأزهر ووزارة المعارف والجامعة على ذلك كله ، وعلى جعل الغرض من التربية والتعليم تحصيل العلم الحق وتكوين الخلق الطيب . وعليهم جميعاً أن يعملوا على أن تكون دور العلم باعثة على ذلك بالجو الذي يسود فيها ، والقوى الطيبة والمثل العليا التي تتجسم في القائمين عليها . والله الموفق للخير ، والهادي إلى الصراط المستقيم .



الإمارة دين وقربة

« . . . فالواجب اتخاذ الإمارة ديناً وقربة يتقرب بها إلى الله ، فإن التقرب إليه فيها بطاعته وطاعة رسوله من أفضل القربات ؛ وإنما يفسد فيها حال أكثر الناس لا ابتغاء الرياسة أو المال بها . وقد روى كعب بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال أو الشرف ، لدينه » قال الترمذي : حديث حسن صحيح . فأخبر أن حرص المرء على المال والرياسة يفسد دينه ، مثل أو أكثر من إرسال الذئبين الجائعين لزريرة الغنم » .

ابن تيمية « السياسة الشرعية »

من تاريخنا الحديث :

الثورة الوطنية الأولى الروح الإسلامية تهزم نابليون وجنوده

للدكتور محمد ضياء الدين الريس

أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة

كانت « الحملة الفرنسية » أول تجربة للاستعمار الغربي في بلاد الشرق العربي أو الأوسط في العصر الحديث ؛ وقد وفدت إلى مصر وعلى رأسها « نابليون » القائد الحربي الشهير بعد أن كتب لنفسه صفحات خالدة في ميادين الحرب بإيطاليا حيث هزم هنالك جيوش الامبراطورية النمساوية وأذل كبرياء تلك الدولة العتيدة ، وكان من قبل قد نجح في القضاء على زعماء الثورة الفرنسية ؛ فكان يرجو بقدومه إلى مصر وهي في جبهة العالم الإسلامي ومفتاح الطريق إلى الهند والشرقين الأوسط والأقصى أن يكسب من الانتصارات الرائعة ما يضيفه إلى صحائف مجده ، وما يجعله يظهر في نظر العالم كأنه يعيد سيرة « يوليوس قيصر » أو « الإسكندر الأكبر » أو غيرها من الغزاة الفاتحين ولكن نابليون سرعان ما خاب أمله ، إذ وجد في مصر عاملاً لم يدخل له في أي حساب ، إذ قابل الروح الإسلامية والأمة المصرية التي تمثل تلك الروح ؛ وكان شعب مصر بالرغم مما كان يعانيه من أرزاء الفقر وإهمال الدولة لشئونه في جميع النواحي وتأخر مستواه الثقافي والصحي ، لا تزال روحه المعنوية عالية ولا يزال يعيش في جو من الاستقلال ويشعر بكرامته ويتذوق الحرية ويقدّر قيمتها ؛ وكان ذلك كله مستمداً من المثل الإسلامية التي كان يؤمن ويعتز بها ومبادئ الإسلام السامية التي يستمسك بها ويحاول جاهداً — بالرغم من الصعاب والعقبات — أن يحققها . فكانت نتيجة ذلك أن حبطت أعمال نابليون ، وباتت حملته بالفشل ، ولم يستطع هو أن يبقى في مصر أكثر من عام أيقن بعده أنه إذا لبث بعد ذلك فسيكون هذا البلد الذي علق عليه أكبر الآمال من قبل قبراً له ؛ فعاد سراً إلى فرنسا . ولم تستطع حملته أن تبقى بعده إلا بقاء

مزعزعاً تهاجمها ثورات الشعب من آن لآخر ، وهى أشبه بأن تكون محصورة ، حتى أرغمت على الجلاء بعد عامين ؛ وعادت إلى مصر حريتها واستقلالها وكانت العوامل الدولية قد جاءت لمساعدة الشعب المصرى فى ثورته المجيدة .

وذلك أن « نابليون » — أو « بوناپارته » الكبير كما يدعو أفراد الشعب المصرى فى ذلك الوقت — وكانت حملته قد وصلت إلى الشواطىء المصرية يوم أول يولييه سنة ١٧٩٨ ، ووقف أهالى الإسكندرية فى وجهه وقفة بأسلة ودافعوا عن استقلالهم — بالرغم من أنه لم تكن لديهم معدات للقتال — دفاع المستعيت ، حتى إن « مينو » أحد ضباط نابليون كتب إليه فى خطابه يقول : « إن الأهالى دافعوا عن المدينة بشجاعة كبيرة وثبات عظيم » . ذلك أن نابليون زعم عندئذ أنه ما جاء إلا ليحارب المماليك ، وقال فى منشوره الذى وزعه غداة وصوله إلى الاسكندرية : « .. قولوا للمعتزين : إننى ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين . . . وإننى — أ أكثر من المماليك — أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم . . . ! » و « أن الفرنساوية هم أيضا . . . مسلمون مخلصون ١١١ » إلى آخر هذه المزاعم ، أو كاذب النفاق الجريئة !

ولكنه لم يمكث فى مصر إلا قليلا حتى تبين أنه جاء ليحارب المصريين أيضا . وكانت كل أعماله تدل على ذلك :

كان من الأوامر الأولى التى أصدرها « أن كل قرية تقوم على العساكر الفرنساوية تحرق بالنار ! » ؛ وفى نفس الوقت ترك جنوده يعيشون فى الأرض فسادا ، ويعتدون على الأهالى الوادعين . وكان أول عمل له بعد حضوره إلى القاهرة هو تعيين « برطلى » الرومى — وكانت العامة تدعوه تفكها « فرط الرمان » — نائبا لمحافظة القاهرة ، فكان هو الحاكم الفعلى لأنه معين من قبل السلطات الفرنسية ومحل ثقتهم . وكان هذا — كما وصفه « الجبرتى » — « من أسافل الأروام » ؛ سيء الخلق مشهورا بالقسوة والفجور ، فكان تسليط هذا الأجنبي الوغد على أهل القاهرة من شر ما فعله « بوناپارته » للتنكيل بالمصريين الذين أعلن أنه إنما جاء ليخلصهم من يد الظالمين . و « برطلى » هذا أول « حكمدار » للعاصمة يعينه الاستعمار من هذا الصنف الذى شهدت القاهرة من أضرابه كثيرا ، وقاست من أعمالهم وأعمال تابعيهم ما ظلت تعاني آثاره إلى عهد قريب .

ولم يمس طلي نابليون في القاهرة بضعة أيام حتى جمع الديوان وطلب منه فرض ضريبة أسمائها « سلفة » على تجار العاصمة وأرباب الحرف بها ، مقدارها خمسمائة ألف ريال فقط ؛ وكان قبل ذلك قد فرض على أهل الثغر غرامة حربية كبيرة ثم زادها إلى الضعف . ولم يكن هذا إلا القَطْر الذي يسبق انهمار الغيث : فبعد ذلك توالى طلب الضرائب والسلف وتعددت مقاديرها ، واختلفت مناسباتها ؛ وفرضت على أهل الريف كما فرضت على المدن ، ولم ينبج من ذلك حق النساء : فقد أجبرت السيدة « نفيسة » المرادية — وكانت من شهريرات النساء في ذلك العصر وذات مكانة رفيعة في المجتمع — على أن تدفع ما يزيد على ٤٠٠,٠٠٠ ريال ؛ وأرغم غيرها من النساء على أن يفقدن أنفسهن بمبالغ أخرى .

وكانت البيوت تهاجم وتفتش باستمرار ، بحجة البحث عن دقائن وخبايا أو إحراز أسلحة . وسلط الفرنسيون على الناس لهذا الغرض وجمع الضرائب نصارى الشوام والأروام وبعض الصيارفة من القبط الذين رضوا أن يتعاونوا معهم ، تساعدهم الجنود المسلحة . فكانوا أول من أثار النعرة الدينية ، وغرس بذور الخلاف بين أبناء الوطن الواحد !

ثم لما أعيت الفرنسيين الحيلة في جمع المال أنشأوا ما أسموه « محكمة القضايا » أو « التسجيل » ؛ فجعلوا عدد قضائهم أو أعضائهم اثني عشر . وكانت مهمة هذه المحكمة — ولم تكن في الحقيقة أكثر من لجنة أو إدارة — أن تلزم الناس بتسجيل ممتلكاتهم ، وأن يقدم كل واحد الحجة التي تثبت ملكيته . فمن وجد الحجة وجب عليه أن يدفع رسوم القيد ، ثم رسوم التثبيت . ومن لم يجد — وكان هؤلاء أغلب الناس — أصبح للحكومة الحق في أن تصدر أملاكه وتضع يدها عليها . وقرر « نابليون » أيضا أن ينعقد في يومه أكتوبر من ذلك العام ما أطلق عليه اسم « الديوان العام » وهو مجلس استدعى إليه أعضاء من الأقاليم ، ولم يكن المراد منه أن يكون — كما يدعى من لم يفهم أغراض الحملة — نظاما « برلمانيا » أو شوريا . وإنما كان الغرض الحقيقي إعداد الرأي العام لفرض ضرائب جديدة ، وإيجاد أداة لتحصليها . فبعد أن قرأ خطبة الافتتاح القاضي « ملطى » طلب انتخاب رئيس للديوان ، فتم انتخاب الشيخ « عبد الله الشرقاوي » بالأغلبية ؛ ولكنها كانت رئاسة صورية . وظل المجلس — بتوجيه ممثلي السلطات — يناقش في مسائل تشريعية وقضائية ، وأخيرا أصدر قراره الخطير بفرض ضرائب عقارية على جميع الأملاك ، ثم قسمت الأملاك

إلى مراتب : عليا ، ووسطى ، ودنيا . واتخذت الإجراءات ؛ وعين المهندسون الذين سيقومون بمعاينة المنازل وربط الضرائب عليها وكاد يتم تحقيق كل ذلك — لولا أن فوجىء الفرنسيون بقيام ثورة خطيرة .

أدت هذه المظالم كلها — مضافة إلى مظالم وأسباب أخرى سنشير إليها بعد قليل — إلى انفجار ثورة وطنية خطيرة بالقاهرة في يوم « ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨ » — الموافق ١٠ من جمادى الأولى سنة ١٢١٣ هـ — فكانت الثورة إعلانا للسخط العام على الحكم الأجنبي ، وتعبراً عن الشعور القومى ؛ وإيذاناً نابليون بفشل سياسة وقرب نهايته !

وقد كان من بين الأسباب الأخرى الاستيلاء على الأوقاف ؛ وقطع الرواتب عن مستحقها ؛ والاعتداء على الحرية الشخصية ، وانتهاك حرمت المنازل ، وتجريد العاصمة من الأسلحة ، وتعرضها للهجوم باقتلاع أبواب الحارات والدروب ، واستبداد « برطلى » الظالم .

كما كان فى مقدمة الأسباب سياسة القمع والإرهاب : إذ أصدر نابليون تعليماته لرجاله فى الأقاليم بالتنكيل بالزعماء الوطنيين ، وإخماد كل معارضة . وأمره فى القاهرة بإعدام السيد « محمد كريم » حاكم الإسكندرية السابق الذى دافع عنها دفاع الأبطال ، حتى شهد له الفرنسيون أنفسهم بالشجاعة والشجاعة ؛ فلم تُقبل فيه شفاعاة ! ونفذ فيه حكم الإعدام فى يوم ٦ سبتمبر ؛ إذ صعدوا به إلى القلعة « وكتفوه وربطوه مشبوحا » — كما يقول الجبرتي — « وضربوا عليه بالبنادق كعادتهم فيمن يقتلونه ؛ ثم قطعوا رأسه ، وطاقفوا بها ! » كما قُتل كثير غيره . على أن السبب الأول والأخير للثورة كان هو الأنفة من الرضا بحكم الغاصب ، والشعور بالكرامة الوطنية . وهذا الشعور موجود منذ قدوم الحملة إلى البلاد : ظهر فى هبوب الإسكندرية للدفاع عن نفسها دون أى تدبير سابق ، كما ظهر فى احتشاد أهل القاهرة عند ساحل « بولاق » للاشتراك فى المعركة التى كان متوقعا أن تحدث هناك ، كما ظهر فى المقاومة المستمرة التى كانت تواجه بها الحملة أنى رحلت أو أقامت . وإذا كانت موقعة « إمبابة » قد انتهت بين نابليون و « المماليك » فإنه كان عليه أن يعد نفسه لحوض معارك عديدة تنشب بينه وبين الأهالى العزل من السلاح : فحدثت مواقع فى المنصورة والجمالية وفى رشيد وطنطا ودمهور وفى قرى صغيرة كسنباط والشعراء وفى كل مدينة من مدن الوجه القبلى . وكانت الاضطرابات تنتشر من مديرية إلى أخرى ؛ وظهر

زعماء المقاومة في كل مكان . ولقد قال أحد كبار مهندسي الحملة « بالرغم من احتلال الفرنسيين لعاصمة مصر فإنهم لم يستقر لهم قرار في البلاد ؛ وكان مركزهم فيها مزعزعا ، ومخفوفاً بالتعاب ؛ ولم يترك الأهالي وسيلة لمقاومة السلطة الفرنسية إلا اتباعوها . وقد ذهب كثير من الفرنسيين ضحية هذه المقاومة ! » .

وكان هذا الشعور الوطني نتيجة الروح الدينية القوية ، التي كانت من أظهر مميزات هذا العهد ؛ إذ أن المسلم ، ودينه يغرس في نفسه معاني العزة والكرامة ، يأبى أن يذل لغير الله ؛ أو يخضع لحكم الأجنبي !

وقد نظر المصريون أول ما نظروا لقائد الحملة وجنوده على أنهم أبناء أولئك « الفرنسيين » الذين حاولوا أن يغزوا مصر أيام الحروب الصليبية ، فباءوا بالفشل ، وأدت إحدى حملاتهم إلى أسر مليكهم « لويس التاسع » وسجنه في دار ابن لقمان ! ولم تتغير هذه النظرة في جوهرها أثناء مقام الحملة ، بالرغم من اختلاف الأحوال في مصر عما كانت في ذلك العهد ، فظلوا يناوئون بكل الوسائل — وإن كانت ناقصة — حتى استطاعوا ، مثل أسلافهم ، أن يخرجوا الغاصب ، ولو بعد حين ، ويجلوه عن بلادهم . وكانت ثورة القاهرة إحدى الثورات التي انبعثت عن كل هذه المشاعر ؛ كما كانت كل الثورات التي تلت بعد ذلك .

واستمرت نيرانها في الأحياء الوطنية ، كالحسينية والجمالية والغورية ، وكان مركزها العام « الجامع الأزهر » — ندوة مصر النيابية الكبرى في ذلك الوقت — الذي اتخذ الثوار منه معقلهم الحصين ، وسدوا كل الطرق الموصلة إليه بالمتاريس . وقد بدأت الحركة في فجر ذلك اليوم بمظاهرة كبيرة توجهت إلى « بيت القاضي » لتعلن الاحتجاج على فرض الضرائب الجديدة ، وغير ذلك من المظالم . ولم تنقلب إلى ثورة دموية إلا حينما حضرت القوات الفرنسية ، واعتدى « برطلى » على الأهالي بإطلاق الرصاص . فهاجت الجموع المحتشدة ونشبت معركة عنيفة بينها وبين فرسان الفرنسيين أسفرت عن مقتل الجنرال « ديبوى » قومندان القاهرة !

ثم انتشرت الثورة في جميع أنحاء العاصمة ؛ وهاجم الأهليون معسكرات الفرنسيين وحاولوا الاستيلاء عليها . وقتل من الفريقين عدد كبير . كما قُتل في اليوم الثاني « الكولونل سلكوسكى » ياور نابليون ، في إحدى المعارك . وأوشك أن يفلت الزمام من يد القيادة الفرنسية ! فلم ينقذ الموقف إلا أن أمر نابليون بنقل المدافع تحت جناح الظلام ؛ ونصبها على تلال المقطم المشرفة على

مراكز الثورة ، فظلت تضربها ساعات متواصلة . وأرادوا — بصفة خاصة — هدم الجامع الأزهر الذى كانت الجموع محتشدة فيه ؛ ولكن الله أراد أن لا يسوء . فهذه الطريقة وحدها استطاعوا أن يسيطروا على الحالة . وتحت حماية المدافع نفذت الجنود إلى الأحياء الوطنية التى عجزت عن اقتحامها من قبل ؛ ودخلوا إلى الجامع الأزهر وربطوا خيولهم بقبلته ، وعاثوا فيه « وكسروا القناديل وهشموا خزائن الطلبة ونهبوا ما وجدوه من المتاع » ثم لما هدأت الحال عمدوا إلى الانتقام من أهل القاهرة بدون تفريق وبصورة وحشية تدل على مبلغ ما وصل إليه هؤلاء الفاتحون من الحضارة والمدنية التى زعموا أنهم جاءوا لينقلوها إلى مصر .

فقتل من أهل القاهرة — باعترافيهم — ما يزيد على أربعة آلاف ١١ وقبضوا على كثيرين ، وأعدموهم سرّاً بالقلمة ، بدون محاكمة . وبينهم عدد كبير من النساء . وبحثوا عن زعماء الثورة ، فاتهموا خمسة من العلماء . وبعد أن حبسوهم أكثر من عشرة أيام وأجروا معهم محاكمة صورية ، حكموا عليهم بالإعدام ؛ فنفذوا هذا الحكم فى يوم ٤ نوفمبر ١٧٩٨ . ويصف « الجبترى » حادث استشهادهم . فيقول : « وذهبوا بهم إلى بيت قائم مقام بدرب الجماميز . فلما وصلوا بهم هناك جردوهم من ثيابهم وصعدوا بهم إلى القلعة فسجنوهم إلى الصباح ؛ فأخرجوهم وقتلوهم بالبنادق ، وألقوهم من السور خلف القلعة ؛ وتغيب حالهم عن أكثر الناس أياما » .

فهؤلاء هم شهداء الوطنية الأولى ؛ وهذه هى أسماؤهم : الشيخ سليمان الجوسقى ، والشيخ أحمد الشرقاوى ، والشيخ عبد الوهاب الشبراوى ، والشيخ يوسف المصليحي ، والشيخ إسماعيل البراوى . وكانوا جميعاً من شباب مدرسى الأزهر .

فهذه هى الثورة الوطنية الأولى التى دلّت على حيوية المصريين ونزعهم القوية إلى الاستقلال ، واستعدادهم للتضحية بالأرواح والأموال . ولم يستطع الفرنسيون بعد ذلك أن يحكموهم إلا بالقلاع التى بنوها على التلال ، وسموها بأسماء قتلاهم فى هذه المعارك . ولم يجسر أى جندي أن يسير فى شوارع العاصمة إلا مسلحاً . وعرف نابليون أنه أمام شعب لا يُقهر ؛ وقد وطد العزم على مكافئته وإخراجه ؛ ولكن بقى أن تساعد العوامل الدولية والظروف الخارجية . فحين وجدت هذه العوامل تحقق الجلاء ، وغادر آخر جندي فرنسي أرض مصر فى خلال شهر سبتمبر عام ١٨٠١ أى بعد ثلاث سنوات — وما أقصرها — من قدوم « بوناپرت » ، وظهر كأن الحملة لم تكن إلا سحابة صيف فى سماء مصر ، ثم تفشعت .

أصول حضارة الإسلام

للمستشرق الأستاذ « ليوبولد فايس »^(١)

نقلها إلى العربية الأستاذ محمد محمود غالى

عقيد اجتماعى جديد

لن يجدينا اليوم نفعاً ترديد ما بين أيدينا من دعاوى عريضة جوفاء نحاول أن نستنهض بها هم المسلمين وإيمانهم لأن موجة هذا الإيمان ما زالت فى انحسار بعد أن أصاب الفكر الإسلامى ما أصابه من أسن وعقم استطلا على يد « حماة الإسلام الرسميين » قرونا طويلة ، إنما السبيل إلى استنهاض المسلمين بعث عقلى جديد يقوم على اكتشاف الإسلام من جديد واستشراف له من مصدريه الأساسيين فى كتاب الله وسنة رسوله ، وفى الأخذ بمناهج الحضارة الإسلامية وممارسته للمجتمعات البشرية من نظم وتشريعات

تساؤل :

ويحسن بنا قبل أن نمضى فى الحديث أن نجيب عن سؤال طالما رددته كثيرون من نقاد الإسلام من غير المسلمين ، وكثير من المسلمين أنفسهم الذين يرتابون فى إيمانهم إذ يتساءلون عما جاء به الإسلام من مناهج وتشريع ، وعما صاحب الإسلام فى صدره الأول من فتح وانتشار يشهد بهما التاريخ ، وعن هذه الحضارة الإسلامية ومدى ما تستطيع أن تقدمه حقاً لسمعة الإنسانية ورفاهيتها حتى تسعى إليها وتنشدها وتطلبها من أبوابها مهما يكلفها ذلك من تضحيات .

وإذا كانت حضارة الإسلام حضارة فكرية ذات مبادئ ومناهج ، وكانت بذلك نمطاً فريداً فذاً فى تاريخ البشرية كلها فهل فى ذلك ما يبرر إيمان أصحابها وثقتهم بالمستقبل ، وهل فى ذلك ما يؤهل هذه الحضارة للهيمنة على المجتمع البشرى حين يأذن الله ، لأن فى هذه الهيمنة تقدم البشر ورفاهيتهم وحفز الهمة إلى كمال الإبداع وشمول الخير ؟

(١) علمنا أن الأستاذ ليوبولد فايس المعروف باسم « محمد أسد » منذ أظهر إسلامه والذي كان يعمل مندوباً للباكستان فى هيئة الأمم ، قد استقال من عمله وعين آخر مكانه ، واتصلت بذلك شائعة ألحمة نفسك من ذكر قصتها والتعليق عليها حتى يتبين لنا فيها وجه الحقيقة .
التحرير

وليس من الخير في شيء أن نجيب عن هذا التساؤل بقولنا « إن الإسلام شرعة الله » لأن مثل هذا القول لا يرضى أحداً ممن لا يؤمنون بالقرآن ورسول القرآن ، وليس لهذه الحجة من وزن أو خطر عند من يجحدون ويرتابون . بل إنه لمن الخير لنا وللدنيا جميعاً إن كنا نؤمن بإيماناً حقاً أن الإسلام دعوة فذة حتم على المسلمين أن يجهروا بها ويعملوا لها ، ونعتقد أن الإسلام لم يكن صفحة عابرة من صفحات الماضي طوى سجلها ، ولكنه نداء الله للإنسانية في مقبل أيامها . إنه لمن الخير أن نقيم الدليل على أن ما ندين به من عقيدة يستند إلى أساس عقلي سديد ، ولا يرجع إلى تعلق عاطفي فج لاغناء فيه .

خرافة العقد الاجتماعي :

ولعلنا قد سمعنا بين نظريات الاجتماع بهذه النظرة التي نادى بها أول ما نادى « هوبز » « لوك » من فلاسفة الإنجليز ثم زاد عليها وأنعمها « روسو » من بعد . ويزعمون فيها أن الجماعات البشرية تقوم في أصولها على ما دعوه « العقد الاجتماعي » . وافترضوا لذلك أن بنى الإنسان وقد أدركوا منذ فجر حياتهم المتحضرة ألا سبيل لهم إلى شيء من الأمن أو السلام إلا إذا تعاونوا فيما بينهم ، فألزموا أنفسهم لذلك عن طواعية واختيار نظماً لهذا التعاون تحدد علاقاتهم فيما بينهم على وجه أقرب ما يكون إلى تحديد حقوق كل فرد وواجباته محققين بذلك مصالح الفرد لصالح الجماعة كلها .

ورغم طغيان هذه النظرة على مجتمعات الغرب في منتصف القرن الثامن عشر وطوال القرن التاسع عشر ، فإن البحوث الاجتماعية الحديثة قد هزتها هزاً وحطمتها تحطيماً ، وأثبتت أنها لا تعدو أن تكون إحدى هذه الأساطير الطريفة يتعامل بها الناس بين الحين والحين لتضفي خيوطاً من النور على ما هم فيه من ظلمة وما يشعرون به من مرارة مبعثها إدراكهم ما هم عليه من ضعف وعجز وقصور .

حضارات القوة :

فليس هنالك من دليل واحد — أيا كان هذا الدليل — على أن مجتمعا من المجتمعات أو حضارة من الحضارات قد نشأت عن رضا الناس بها واتفاق حر فيما بينهم عليها لأن الصورة التي نشأت عليها مجتمعات البشر تختلف عن ذلك أشد الاختلاف ، فلم يؤثر عن أى من هذه المجتمعات التي روى لنا التاريخ من أخبارها أن كيانها الاجتماعي المتوارث كان وليد اتفاق حر بين من ضمتهم هذه المجتمعات سواء كان على رأس هذه

المجتمعات ثلة من الأفراد كما كان الحال في مجتمعات اليونان الأقدمين التي كانت مدنها دولا مستقلة ، أو كانت مجتمعات يحكمها الملوك باسم الآلهة ، كما كان الشأن في حضارات البابليين والمصريين ، أو كانت مجتمعات إقطاعية كمجتمعات أوروبا في القرون الوسطى . بل لقد كانت هذه الحضارات على النقيض من ذلك نتاجا خالصا لسياسة القوة وحدها . فكان يقوم في فترات متباعدة من الزمن أفراد أو جماعات من الناس تنجح في التسلط على من عداهم من أفراد القبيلة أو المجتمع سواء عن طريق القوة الغشوم وحدها أو التهديد باستخدامها . وقد تكون الفئة في ذاتها أقلية ولكنها أشد عزيمة من الأغلبية وأثبت منها جنانا . ويستطيع الفرد المتسلط كما تستطيع الجماعة المتحركة في كلتا الحالتين — وبين يديها السلطة المطلقة — أن تشكل على هؤلاء ماشاءت من مختلف النظم الاجتماعية لرعاياها ، وكثيرا ما تم الوصول للحكم والقبض على ناضية السلطان عن طريق غزو خارجي حين تقوم قبيلة لغزو غيرها من القبائل والأقطار . وحينئذ تضطر الأمم المغلوبة على أمرها للخضوع الدائم لمشيشة الحاكمين فينتقص مما كان لأصحاب البلاد من أوضاع اجتماعية ويعلى من مكانة الغزاة ومقامهم تبعاً لذلك . ولعل الأمثلة على ذلك غزو الآريين للدرافيين في الهند ، وما تبع ذلك من خلق طبقة من المنبوذين من أهل البلاد بينما احتفظ الغزاة لأنفسهم بالدرجات العلى في مجتمع ذى طبقات يشغل أدناها أبناء الشعب المهزوم .

وكيفما كان سبيل أصحاب السلطان إلى تولى الحكم والسيطرة فإن جهودهم تتجه أول ما تتجه إلى تأمين نفوذهم والحفاظ على ما نالوه من سلطان لأنفسهم ولخلفائهم من طبقتهم من بعدهم ، وإلى دفع كل من تحدته نفسه بمنازتهم عليه ممن كانوا أقل منهم حظاً وتوفيقاً من أفراد المجتمع نفسه . ولكن هذه القوة المادية لا تستطيع أن تحمي هذه الأوضاع وتحافظ عليها طالما كانت هناك طبقات محكومة تتحين الفرص لتقابل عنف حكامها بعنف مثله أو أشد ، فاستوجب ذلك تدبير وسائل أخرى أقوى وأفعل في تدعيم الأمر الواقع وحمايته من كل وجه ، حتى يستطيع الحكام بذلك أن يخضعوا عقول رعاياهم لمشيشتهم بعد أن دانت لهم قواهم وأبدانهم من قبل .

حضارات الكهنوت :

ثم شهد التاريخ الوازع الديني ، أرقى عواطف البشر ومشاعره ، يصرف عما وجد له ليسخر بعد ذلك لخدمة المصالح الخاصة لأصحاب السياسة ومحترفيها . فوجدت أمثال هذه الأنظمة من كهنوتية وملك متوارث وغيرها من نظم الاسترقاق التي تفاوتت قسوة وغلظة ، وقد علاها طابع التقديس وجللتها هالة الإيمان بالأديان واستحدثت

للناس قصص وأساطير تبرز ألوهية الملوك وتدووات هذه الأساطير في براءة وحذق أشاعها وأذاعها بين الناس ، وساعد على ذلك وجود طبقة السكينة وعلى رأسها الملك في غالب الأحوال ، بل لقد بلغ الحال بالمصريين القدماء أن اعتبروا ملوكهم تجسداً للاله ذاته .

وكذلك نرى في الجمهوريات التي قامت في المدن اليونانية وفي عصر الامبراطورية الرومانية الأولى الطبقة الحاكمة في مجموعها قد استأثرت لنفسها بكل المناصب الدينية فكان الرهبان وخدام المعابد وسدنتها من بين الحكام أنفسهم وظلت هذه النظم تختلف فيما بينها اختلافاً يبيّن استتبعه تباين المستوى العقلي والحقبة الزمنية التي قامت فيها ومزاج الأجناس التي تتألف منها أفراد البيئة التي استحدثت هذه الحضارة . وكانت الطبقات المحكومة في كل عصر وبيئة تلقن أن النظام القائم بين أفرادها هو وحده النظام الذي اختاره الله أو ارتضته الآلهة فكل محاولة لتعديله ، أو إصلاحه جنسية عظمى وإثم كبير .

وكان من الطبيعي ألا يبدى المحكومون رضا صادقاً بحالهم أو انصياعاً لما يتطلبه منهم أصحاب الحول والسلطان : فكانوا إذ يشعرون في بعض الأحيان حين لا يستطيعون على آلامهم صبراً يسامون صنوف العنف والعنف والاضطهاد ، وقد يقدر لهم بعد هذه الهزات والثورات الظفر بقدر يسير من الإصلاحات التي تصبح فيما بعد جزءاً لا يتجزأ من نظامهم الاجتماعي المتوارث .

وينبغي أن نذكر هنا أن كل هذه الإصلاحات التي كانت تستحدث للتخفيف من حدة الظلم والعنف في النظام القائم ما كانت تتم دون عنف أو مناخزة ونضال، وما ذلك إلا لأن الطبقات الحاكمة ما كانت لتقر هذه الإصلاحات إلا على كره منها حين تضطرها الحوادث إلى ذلك اضطراراً لا فكاك منه ولا محيف ، ولم يكن يدفع الحكم إلى هذه الإصلاحات أي معنى من معاني العدل والإنصاف . فكان يحدث داخل المجتمع من كبت فثورة فكسب لبعض الحقوق حدثاً ، ألؤفاً وحقيقة ثابتة تتجدد على الأيام في طول تاريخ البشر ، ولا نرى في هذا المقام سوى حضارة الإسلام تستطيع أن تكون استثناء واحداً فذاً لهذا الحكم التاريخي العام

عقد اجتماعي جديد :

جاءت حضارة الإسلام إذن عقلية المنزع والصبغة مستمدة من مجموعة من الأحكام والقوانين تحدد سلوك الأفراد ومعاملاتهم في المجتمع تحديداً مميزاً واضحاً ، وسميت هذه القوانين بالشريعة ، وكان ذلك حين قام عبد من عباد الله ونبي من أنبيائه ينادي قومه كما أمره ربه :

« قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ^(١) » .

ولقد سلك رسول الله في تبليغ رسالة ربه نهجاً لم تشهد البشرية له من قبل مثيلاً فقد عمل على إيجاد أمة من الناس لها صبغتها الدينية والسياسية فما جمع بين أفرادها أو ربط بين قلوبهم إلا إيمان واع واتباع عن طوعية واختيار لمبدأ اعتنقوه وآمنوا بصدق الداعي إليه ، ولم يدع الرسول الكريم أنه مستحدث هذا المبدأ أو مبتدع هذا الدين وموجده ، وما زاد على أن يكون القائم على إنفاذ ما أنزله الخالق القدير لعباده من نهج وشريعة . فأقبل عليه الذين استجابوا له فرادى أول الأمر ، ثم دخلوا في دين الله أفواجاً بعد ذلك حتى دانت للدين الجديد جموع من البشر تعز عن الحصر معلنة إسلامها واتباع سبيله في حياة الرسول وبعد أن اختاره الله لجواره ؛ فجاء قبولهم للإسلام عن تفهم كامل له ، وتدبر لشرائعه ، وظهرت بهذا الحدث العاتي والرغبة الجارفة لأفراد مجتمع واحد أولى الحضارات العسكرية التي شهدتها التاريخ : حضارة كانت مبادئها ومثلها العليا وحدها كل أسباب الجمع بين أفرادها وكل مبررات الربط والتأليف بين قلوبهم ، ولم تسكن كغيرها من الحضارات سبيلاً اندفعت فيه فئة من ذوي المصالح المشتركة حفاظاً منهم على سلطانهم وحقوقهم المدعاة .

ولم يكن بين صحابة رسول الله فئة أو طبقة تفردت بامتياز أو سلطان على من عداها من الطبقات أو الفئات ، وما كان لأي لون من ألوان التمايز والتباين بين الصحابة أن يوجد لأن كل امتياز اقتصادي أو اجتماعي ، وكل نفوذ سياسي رهن بقيام نظام اجتماعي ثابت محدود يقوم فيه أصحاب المصالح المكتسبة بالحفاظ على هذه الامتيازات وحمايتها دون تردد أو هوادة . ولما كان ظهور الإسلام برسائله الاجتماعية الإصلاحية ينطوي على البعد عن كل ما سلف في الماضي من نظم وتقاليد فإن استمرار ما زخر به هذا الماضي من حقوق مكتسبة أو امتيازات متوارثة أصبح أمراً لا مبرر لقيامه ولا مسوغ لوجوده . ولقد أدرك هؤلاء السابقون بالإسلام إدراكاً تاماً واضحاً أنهم مقدمون على استحداث أمر جليل ينشئونه ولا صلة له بما سلف من تراث وتقاليد : فعنى بها ماضيهم القريب . كان هذا هو النهج الذي عرضه عليهم صاحب الهدى فتقبلوه راضية به نفوسهم لأنه ما شرع إلا ابتغاء ما يبشرون به من خير وما يهدم به من رضوان .

الفرد والمجتمع :

وليس أبعد في الإغراق في الخطأ من أن نظن أن ما جاء به الإسلام من تشريع

كان يهدف أول ما يهدف إلى تنظيم الجانب الاجتماعي من حياة الأفراد أو أنه قد اعتبر الجانب الفردي والروحي من حياته في المقام الثاني بالنسبة للجانب الاجتماعي ، بل لقد كان الأمر على النقيض من ذلك إذ أن من الأصول الأولى لحضارة الإسلام إنكارها الشديد على الشيوعية — مثلاً — ما أتت به من نظم نظرت فيها إلى الفرد أولاً على أنه عضو في جماعة وعلى أنها قد جردت حياة الفرد من كل خطر أو أثر في ذاتها مستقلة عن كيان المجتمع أو الجماعة . وبهذا كان الفرد في نظر الإسلام قطب الرحي في كل أصوله وتشريعاته . وما كان للإسلام أن يضع الفرد في غير هذا الموضع مادام الهدف الأسمى لكل دين وشرعة أن يخلق في الفرد إدراكاً عقلياً سامقاً ونظرة خلقية متسامية يطوعان له القدرة على أن يستبين خير السبل ، ويهديانه صالح العمل . وبغير هذا الاهتمام بالجانب الروحي في الفرد وتربيته فيه تفقد الأديان حتى كل مبررات قيامها وبقائها ويضحي وهماً كل ما ترسمه للناس من غايات وأهداف ، فلا معنى للتقدم الروحي ما لم يتصل هذا بحياة أفراد البشر ويرتبط بها .

ونستطيع أن نقول كذلك إن الإسلام لا يدعو إلى إرضاء الجانب الروحي وحده من حياة الإنسان مغضياً عن وجوده المادي لأن الإسلام لا يفعل أبداً عملاً للبشر ككائنات حية من مستلزمات عضوية حيوية لما أودع الله فيهم من ضرورة السعي في جماعات يستطيعون في ظلها أن يحققوا مطالب أبدانهم وأمور معاشهم ، ويفتحوا لعقولهم طرائق التفكير وأبوابه ، ويباغوا من آفاق الفضائل الخلقية آمالهم ومطامحهم . ولا انفكاك لهم في ذلك عن اعتماد بعضهم على بعض ، وبهذا لا يكون المجتمع الإنساني في حقيقته إلا تقاليداً للتعاون والتكافل إلى ميدان محسوس .

ويتوقف صلاح عبادة المسلم وسعادته الروحية على مدى ما يستمدّه ممن حوله من أفراد المجتمع من عون وحماية وتشجيع لقاء ما يجده غيره من أبناء المجتمع هم كذلك منه من عون ورعاية . ومن هنا ندرك كيف أن الإسلام لا يستطيع أن يفصل ما بين الدين والسياسة ، أو يفرق بين الدين والاقتصاد . فما كان الإسلام من هدف يرمى إليه أو فكرة يريد بها تحديد مهمة المجتمع أجل وأسمى من تنظيم علاقات الأفراد تنظيمًا يستطيع في ظله كل فرد من أفراد المسلمين أن يذلل ما يعرض له من صعاب ومن عقبات ، وأن يجد في ظل المجتمع المسلم كل عون ورعاية يتسنى له معهما إنماء فرديته والدنو بها إلى أسمى مراتب الكمال الإنساني . هكذا كانت مهمة المجتمع في نظر الإسلام كما جلاها الرسول الكريم لأعين البشرية ، منذ بدء بعثته واصطفائه بالرسالة .

تلاوة

« افتتحنا هذا الباب في العدد العاشر وقلنا في مقدمته إننا نفتح له ليكون صلة بيننا وبينك أيها القارئ العزيز ، وندوة نجتمع فيها كلها عنك لك رأى أو خاطر ؟ فالإسلام دين جماعة ، وأمتة — حين تصدق — لا يمكن إلا أن تكون موحدة العاطفة والفكرة . . . وهذه الوحدة لا تخلص إلا إذا تبادل المسلمون النصيح وأخلصوه لله . وهذه مهمة الباب الجديد والله المستعان . »

التحرير

... وفي رسالة كريمة يقول الأستاذ المجاهد الفاضل « الفضيل الورتلاني » :
(يسعدني أن أهنيء أسرة « المسلمون » بالتوفيق الذي من الله به عليها في عامها الأول المبارك ، فإن هذه المجلة المشرقة المربدة إلى جانب مستواها العالي من حيث قوة الموضوع وأسلوب التحرير ، فإنها استطاعت لأول مرة أن تجمع للمسلمين في مدرسة واحدة صفوة الأساتذة والقادة في العالم الإسلامي كله ، وقد كان اجتماع هؤلاء أمل المشتغلين بالحركة الإسلامية في كل مكان فجاءت « المسلمون » لتحقيق الشطر الأكبر من هذا الأمل ، ولتكون بذلك أساساً راسياً للوعي الإسلامي النامي ولوحدة المسلمين المشوذة .

لقد طفت خلال السنة الماضية بكثير من أقطار الإسلام في المشرق والمغرب فأسعدني أن رأيت « المسلمون » موضع حديث الناس وإعجابهم ، وهم يعتبرونها فتحاً جديداً في أفق الحركة الإسلامية .

ولا يزال أملنا في « المسلمون » أكبر بارك الله فيها وأيد صاحبها بروح منه)

اللهم آمين ، وشكر الله للأستاذ الكبير جميل عطفه وتشجيعه ، وجعلنا عند حسن ظنه وظن أهل الخير .

وفي رسالة من طنجه يقول الأخ الفاضل العزيز الأستاذ الشيخ عبد الله بن كنون :
(. . .) وأقول بكل صراحة إن مستوى « المسلمون » فوق المستوى الذي كنت أتوقع بكثير ، إذ كنت أظنها ستكون مجلة الجمهور المسلم تُفقهه في الدين وتبصره بحقائق الإيمان فإذا بها مجلة راقية ترتفع عن مستوى الجماهير ، ولكنها تسبي نفوس النخبة من رجال الدين ورجال الإصلاح . وعلى كل حال فقد سدت فراغا أعجز كثيرين سده . وإن كان يعوزها شيء فهو باب واسع لأخبار العالم الإسلامي ، وآخر للتعريف بالكتب الصادرة في مواضيع إسلامية) .

ونحن نشكر للأخ المفضل تحيته الكريمة وتوجيهه ، وسنعمل على توسيع باب الأخبار ، وفتح باب الكتب إن شاء الله . وإن كنا ننتهز هذه الفرصة لنذكر أن الاتجاه في باب الأخبار وفي أفق العالم الإسلامي هو « توجيهي » لا « إخباري » لا لأن المجال لا يتسع لذلك لحسب ، ولكن لأننا — ونحن بصدد صناعة تيار سياسي دائم يقوم على الوعي الإسلامي الناضج — نؤثر ألا نشتغل بالتيارات الأخرى المؤقتة إلا بالقدر الذي يعيننا .

أما كون المجلة فوق مستوى الجماهير فنحن نعلم ذلك ونعتذر عنه ، وعذرنا أننا أردنا بالمجلة خدمة الحركة الإسلامية على اختلاف أسمائها عن طريق تغذية المشتغلين بها والعاطفين عليها بحقائق الإسلام ، وأن يكون مستواها في ذلك المستوى الذي يكفل للحركة نضجا وتربية تواجه بهما مذاهب العصر وتياراته وفتنته القاسية ، وربنا سبحانه يقول : « بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم » ولا بأس مع ذلك أن يكون من مهمة المجلة — وهو ما ذكرناه في مقدمتها الأولى — أن تطرق أبواب المشتغلين بالعلم في مختلف فروعهم وتحاطبهم بالأسلوب الذي يفهمونه ، وتهتك بذلك الحجاب القائم بينهم وبين جمال الإسلام وحقائقه .

هذه المهمة وتلك وما يتصل بهما عبء صعب وأمانة قاسية وطريق طويل ، نسأل الله أن يعيننا عليه ، وأن يجنبنا فيه الزلل .

وفي رسالتين من الصديق الفاضل الأستاذ طه عبد الباقي سرور الأديب المصري المعروف ، والسيد عمر عبد الرزاق الدايل من لبنان رجاء حار بأن تباع المجلة في السوق وألا تكون خاصة بالمشاركين . ومن كلمات الأستاذ طه :

(. . . فاسمح لي اليوم أن أنور عليك باسم الكثير من القلوب المؤمنة ، وباسم الكثير من العقول المفكرة . . . أنور ضد تلك القيود التي تقيدها حول الخير الذي هو « المسلمون » وأعني بتلك القيود أن لا تكون المجلة إلا للمشارك والمشارك وحده ، و« المسلمون » للمسلمين ؛ فيسّر يا أخى على المسلمين يسّر الله لك ونفع بك وأعانك على جهادك ، فإن رايتك التي يمينك « المسلمون » تواجه اليوم معركة وتلقى عدواً ما أظن أن غيرها لقي مثل ماتلقى ، وعانى مثل ما تعاني وحسبك الله) .

وقد تكرّر هذا الرجاء كثيراً من أصدقاء كثيرين ، ونحن نشكر للصديقين الكريمين عاطفتهم واهتمامهما ، وجوابنا عليهما ما أجبتنا به على رسالة الأستاذ عبد الله بن كنون ، نزيد على ذلك أن عدد هؤلاء الذين يمكنهم الاستفادة من المجلة والمهتمين بها لن يزيد إلا قليلاً يبيع المجلة في السوق فقد أعلننا عن المجلة الإعلان الكافي . بقي العذر المادى عند البعض ، وهو الذى يؤلمنا أشد الألم ، ولكن لدينا عذراً مادياً أسمى منه وهو مشاكل التوزيع التي يتولاها العدو الذى أشار إليه الأستاذ طه ، وموقف شركات التوزيع من الصحافة الإسلامية أليم مرير ، فصبر جميل والله المستعان . وقد عالجنا تخفيف عبء الاشتراك عن الطلاب تقديراً للعذر المادى ، وفعلنا غير ذلك تلبية لبعض الظروف في حدود الطاقة .

ثم إننا بطريقة الاشتراك نستطيع دائماً أن نعرف أسرة « المسلمون » في كل مكان . وهذه ميزة طيبة تعيننا في توجيه التحرير ، وفي تنمية روح الجماعة التي أصبحنا أحوج مانسكون إليها بعد تشتت طويل

ويطلب السيد عمر الدايل أن نفتح باباً لأسئلة القراء والاستفتاء ، وسنفعل إن شاء الله ، ويرى ألا نطرق موضوعات خلافية تبعثر الجهد وتضيع الوقت ، وهى لفظة حكيمة جميلة ؛ فإن الذى لدينا من الحقائق المجمّعة عليها المهملات كثير . . . فلنبدأ به ولنجتمع عليه ، واجتماع القلوب والعقول كفيل أن يحصر الخلاف في أضيق زواياه ، وهو حينئذ خلاف في زوايا بناء قائم لا نزعة الأهواء . . .

لم تصب امرأة ولم بخطي، عمر ! . .

وفي رسالة من مكة المكرمة تحت هذا العنوان يقول الأستاذ أحمد محمد جمال :
(شرفت بمعرفة فضيلة الأستاذ مصطفى السباعي ، كاتب « السنة » في « المسلمون »
الغراء ، عندما زرت دمشق في صيف عام ١٣٧٠ ، ثم رأيته في موسم الحج من العام
نفسه في الحفلة التي أقامها الأستاذ سعيد رمضان في فندق بنك مصر . وكان إعجابي
به ولا يزال قوياً .

وقد أوشجت « المسلمون » بيننا وبين كتابها الفضلاء الأجلاء صلة الأخوة
الإسلامية ، وربطت بين عقولنا برُبُط الثقافة المشتركة ، والتناصح المتبادل .. فجزي الله
عنا أخانا « سعيداً » خيراً ، وزاد « مجلته » هذا الرباط المقدس بيننا قوة وزكاء .
ولعل من دلائل المودة الإسلامية الصادقة ، وعوامل تنميتها وتزكيته : أن يجادل
بعضنا بعضاً بالحسنى فيما تنشره « المسلمون » من آراء لنا وبحوث . .

جاء في سلسلة بحوث الأستاذ السباعي عن « السنة » بالعدد الأخير من « المسلمون »
أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه نهى الناس عن التغالي في مهر النساء ، فقامت إليه
امرأة تخطئه ؛ وتستشهد بالآية الكريمة : « وإن آتيتهم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه
شيئاً » فقال عمر : « امرأة أصابت ورجل أخطأ » .

والذي أعرفه أن قصة عمر والمرأة غير ماروي الأستاذ السباعي ، وغير ما يرويه
الرواة . وكان أولى أن يحتجوا على القصة لأن يحتجوا بها ، لو وزنوا قول عمر وقول
المرأة بميزان صحيح .

فالآية : « وإن آتيتهم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً » لاتلاقى — بتعبير
القضائيين — نهى عمر عن التغالي بالمهور وحده ، ولكنها تلاقى شيئاً آخر أسقطه
الرواة ، وهو قول عمر : « . . وكل امرأة زاد مهرها على مهر ابنة محمد عليه السلام فهو
في بيت المال » .

ثم إن هذه الآية نزلت في النهي عن تضيق الأزواج على زوجاتهم ليضطروهن
على افتداء أنفسهن بشيء من مالهن للمخالعة والفراق ، ويزيد ذلك وضوحاً صدر الآية
« وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتهم إحداهن الخ » .

وإذا بإقرار سيدنا عمر رضي الله عنه بخطأه وصواب المرأة إنما كان منصباً على هذا
الجانب من خطبته . . جانب وضع الزائد من مهر النساء على مهر الزهراء في بيت

المال ، ذلك أن الزوجة — بعد تراضى الزوجين على الصداق بالغاً ما بلغ — أولى به من بيت المال ، بلا جدال .

أما التغالى بالمهور عموماً ، وقبل التراضى بين المتزوجين ، فالنهي عنه دعاية واجبة أصاب فيها سيدنا عمر ، ونصيب فيها نحن من بعده . لأنه — أى التغالى — سبب كساد البنات وفسادهن بلا مرأ .

وبعد فشكراً لصاحب هذه المجلة ، على هذه الفرصة التى أتاحتها لتلاقى أرواح وأفكار مسلمة ، متحابة فى الله ، متناصرة فى دينه ، على تباعدها بين مكة والقاهرة ودمشق .

وشكر الله اهتمامك يا أخى أحمد .

ملاحظة

وفى رسالة من الأخ الكبير العزيز الأستاذ عمر التلسانى تحت هذا العنوان يقول :
(فى العدد الخامس للسنة الأولى من « المسلمون » قرأت خاطرة بعنوان « شكوى » استغرقت معها فى تأمل طويل عميق ، وطويت المجلة وأمسكت بالقلم وكتبت هذه الخاطرة . وأخذت العوائق يوماً بعد يوم تحول بينى وبين إرسالها إليكم ، حتى كان ما كان ، فإذا بى أراها قديمة جديدة ، أو جديدة قديمة لست أدري أيهما أصح . فإن رأى قلم التحرير أنها جديدة بالنشر فله إدراجها فى أمد أعداد المجلة ، وإن رأى أنها غير خليقة بالنشر فالرأى ما يرى .

« يا صاحب الشكوى »

« فى قلوبنا قبس من الإيمان ، لا يزيد عصف الحوادث إلا تأصلاً ورسوخاً . . .
الضوء واهن حقاً . . . ولكن يسار عنى هدهاء فى حلوك العسق القاتم . . . »
ومنى عاش الهداة والمصلحون فى غير مثل هذه الأجواء ؛ ولمن تبعث الرسل إذا صلح حال العامة وأمن الناس أجمعون ؛ الآراء سقيمة . . . والمشاعر سقيمة . . .
والأوضاع سقيمة ؛ وليكن . . . أليس هذا هو ميدانك ؟ وتلك هى مهمتك ؟ وهل نبت الدعاة إلا فى مستنقع الضلالة ؟ وهل قام المصلحون إلا فى مباءة الغباء الفكرى ، ولوثة العقول التائهة فى بيداء العتو وسطوة الشيطان ؟ . . . أجل . . . إنا بالغوا .
ما نريد . وسنجد ما وعدنا ربنا حقاً ، وسنقيم الحق ولو فى أودية الأبالة . . . بل
ولقد أقمناه فعلاً فى محيطنا المحدود . . . وإنا لمقيموه فى الغد القريب أو البعيد مسموق

الذرى فوق أركان هذا الكون الفسيح . أليس عهدنا أن تنصر الله . . . وفى ذلكم
بشارتنا بنصر الله لنا وتثبيت الأقدام منا ؟ !

المعركة رهيبة . . ما فى ذلك من شك . . . والنضال عنيف مرير . . . ما فى
ذلك من ريب ، بيد أننا فى هذا العنف نستروح صفاء الأرواح ، وفى تلكم المرارة
نتذوق حلاوة الكفاح . . . اعننى أيتها المعركة الرهيبة فإننا جند الله الغالبون ، واشتدى
هوج الرياح ، واحلوا لى ظلمات العسف والطغيان فإننا القبس الذى سيجد الضالون
عليه الهدى وبدفته يصطلون .

أنت وحدك القادر يارب الصغير والكبير . . أنت القادر وحدك على كشف
الغمة . . فاجعلنا أهل دعوتك ، وحمله رسالتك ، وهداة أمتك . . وحسبنا هذا
منك منّا ، وحسبنا هذا منك رضا ، ثم حسبنا ذلك عندك مثوبة وجزاء .
ليس اعتدادا . . . ولكنك مانح القوة والحياة ، فهى بك ومنك ، ولك وإليك . . .
لك العتبى حتى ترضى ؟

* * *

جزى الله الأخ الكبير كل خير عن قلبه الكبير ، ولعل القارىء العزيز يحس
أن الحاطرتين من نبع واحد ويدوران فى فلك واحد .

نبي الهرمى

نبي تلاقى فى جوائحه العُلا وتجد الحياة الضخم واليوم والغد
وأخص فيه الكون حتى لأنه حياة وخلد وامتداد وموعِد
« أحمد نار »

العوامل والمؤثرات التاريخية: وراء نظام الرأسمالية:

للأستاذ السيد أبي الأعلى المودودي

تعريب السيد محمد عاصم الحداد

(٢)

الانقلاب الصناعي :

وفي القرن الثامن عشر زاد اختراع الآلة زيادة عظيمة في سير ذلك الانقلاب الذي كان قد ابتدأ في دور النهضة الثانية . ولما استعملت المعلومات والاختراعات العلمية الجديدة في ترقية الصناعة والتجارة والزراعة ووسائل النقل ، بدأت سلسلة إنتاج المنتجات وإعداد المواد الخام ، واستهلاك البضائع المصنوعة في كل قطر من أقطار العالم على نطاق واسع ، لم يكن خطر على بال من قبل .

وإن فرص الرقي والرفاهية والقوة والفوز والسلطة التي فتحت أبوابها هذا الانقلاب العظيم ، فإن أقرب طائفة قامت وتقدمت للاستفادة منها هي طبقة بورژوا وحدها ، التي كانت قد نهضت وارتفعت شأنها في دور النهضة الثانية . وذلك لما كان بيدها من الصناعة والتجارة والثروة والسيطرة على العلم والأدب . فاستخدمت الثروة والمهارة الفنية والكفاءة الإدارية ، وأقامت بها نظاماً للصناعة والتجارة جديداً اشتهر في ما بعد بنظام الرأسمالية الجديد ، وقد أقيمت تحت هذا النظام الجديد معامل ومصانع ودوائر تجارية كبيرة في المدن ، وانفضت الحلقات القديمة لأهل الحرف من الطوائف المختلفة ، وضائق سبل العيش على وجوه أصحاب المصانع الصغيرة والصناع المنفردين والتجار من ذوي الثروة القليلة ، واضطر أهل الحرف من سكان القرى أن يؤموا المدن ويتمثلوا عمالاً أجراء بين أيدي أصحاب المصانع الكبيرة هؤلاء . وكذلك لم يجد التجار من أصحاب الأموال الضئيلة بداً من أن يكونوا مستخدمين أو وكلاء هؤلاء الصناع والتجار ، فهكذا تخطفت طبقة بورژوا واستأثرت بكل ما جاءت به الاختراعات العلمية الحديثة من القوة وأخذت في توسيع نطاق نفوذها وسيطرتها .

وإن أكبر ما حال دون امتداد هذه السيطرة ونفوذ تأثيرها ، هو تلك الولايات القومية التي كانت قد تولدت نتيجة لحركة النهضة الثانية . كان ملوك هذه الولايات المستقلون

يزعمون ويدّعون أنهم يتمتعون بسلطة موهوبة لهم من الله ، وكان أمراء النظام الإقطاعي الفارط وأغنياؤه قد أصبحوا أنصاراً لهؤلاء الملوك وأساطين قام عليها صرح سيطرتهم ونفوذهم ، وأصبحت لهم الكنائس القومية سنداً دينياً وروحانياً . وجملة القول أن السلطة كلها كانت بيد هذا « الثالث » ، وهو كان يلقي في سبيل طبقة بورثروا أنواعاً من العقبات ؛ بل لم تكن عقباته تحول دون طبقة بورثروا في ميدان الصناعة والتجارة فحسب ، بل كان هناك في العمران والمدنية أيضاً كثير من مخلفات نظام الإقطاعية لا تحبها هذه الطبقة الناشئة وتشمئز منها اشمئزاً شديداً .

مذهب الحرية والتجديد الحديث :

ثم إن مذهب الحرية والتجديد الذي كان قد انتصر في الحرب الماضية ، نهض مرة أخرى في هذا الدور متدججاً بالأسلحة الجديدة وأخذ ينفخ روح الجمهورية في السياسة وروح الحرية الفردية في المدنية والاجتماع والأدب والأخلاق ، وروح التحرر وعدم التقيد بشيء (Laissez faire) في الاقتصاد . ولقد كان قولهم الذي يقولونه في هذا الشأن أنه لا يحق للكنيسة ولا للدولة ولا للمجتمع أن يقوم في وجه سعي الفرد للارتقاء والانتفاع ، وأنه ينبغي أن تكون الحرية التامة متيسرة لكل فرد من الأفراد حتى يتمكن من استعمال قواه ومواهبه وكفاءاته حسب ميوله ، ويتقدم إلى الأمام حسب ما يستطيع ويقدر . بل لا يمكن أن تسدى إلى صالح المجتمع نفسه خدمة حقيقية إلا بأن يتمتع كل فرد من أفراد بحرية غير محدودة في كل شعبة من شعب الحياة ، وفي كل طريق من طرق العمل ، ومن كل قيد من القيود الرسمية والدينية والحلقية والقانونية والاجتماعية فهكذا استنفذ زعماء هذه النظرية ورافعوا لوائها جهودهم في رفع كلمة التسامح والتحرر والإباحية والفردية و - إذا قلنا بكلمة موجزة - « المعقولية » (Rationalism) حسب ما اصطلمحوا عليه .

ولقد كانت طلبتهم في السياسة أن تكون سلطة الحكومة ضيقة إلى أقصى حد ممكن وأن يكون الفرد متمتعاً بأوسع ما يمكن من الحرية ، فلا تكون الحكومة إلا وكالة تعنى بإقامة العدل بين الأفراد وتمنعهم أن يتدخل بعضهم في حدود بعض وتحافظ على الحرية الفردية . أما الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، فينبغي أن تدور رحاها وتسير شئونها كلها وفقاً لجهود الأفراد وأعمالهم وأفكارهم وآرائهم الفردية ، فلا حاجة للحكومة إلى التدخل في شئون الأفراد هذه لا بحيث أنها عاملة ولا باعتبار أنها زعيمة . وفي الحين نفسه كانوا يريدون أن لا تبقى سلطة الحكم ملكاً لعائلة ملكية ولا أن يستغلها بعض بيوتات من ملاك الأراضي . إن البلاد ملك لعامة الأهالي ، ولا تسير شئون

الحكومة إلا بما يؤدون إليها من الضرائب ؛ فينبغي أن لا تقوم الحكومات ولا تنفص ولا تبدل إلا بأرائهم وأن يكون لهم تأثير بالغ وكلمة مسموعة وقول فصل في التشريع والإدارة . فهذه النظريات هي التي أصبحت أساساً لما بدأ يقوم في الدنيا منذ أواخر القرن الثامن عشر المسيحي من الجمهوريات الجديدة .

أما المبدأ الذي دعوا إليه واهتموا به اهتماماً بالغاً ، فهو أنه إن تركت قوانين الاقتصاد النظرية تعمل بنفسها على سجيئها بحيث لا يتدخل فيها ولا يخل بشأنها عوامل خارجية ، فالمرجو أن يتأتى أكبر خدمة ممكنة للفلاح الجماعي بمساعي الأفراد الفردية من غير محرك ولا دافع ، فيزداد الإنتاج ازدياداً ، ويظل يتوزع بين الأفراد بأحسن طريق ممكن ، بشرط أن يكون الناس كلهم متمتعين بالحرية التامة في سعيهم وعملهم ولا تتدخل الحكومة في هذا العمل الفطري بطريق متصنع . فبدأ الاقتصاد الحر *laissez - faire* هذا هو الذي تقرر واعتبر نظرية أساسية لنظام الرأسمالية الجديد .

ومما لا ريب فيه أن مذهب الحرية والتسامح هذا الناجم قرنه في دور الانقلاب الصناعي كانت فيه عناصر للحقيقة والصدق ، كما كانت في مذهب الحرية الناشئ في دور النشأة الثانية ، وهي التي سببت له النجاح أخيراً ، ولكننا نشاهدها مقترنة بالأثرة والتطرف : أي نفس الضعفين اللذين مازلنا نشاهدهما عاملين منذ دور البابوية والإقطاعية فأما الأثرة فكان من مظاهرها أن كانت مطالبة أكثرهم بالحقوق والإنصاف خالية من الإخلاص ، وأنهم ما عرضوا ما عرضوا من المبادئ الصحيحة حباً للحق ، وإنما عرضوها لأنها كانت مفيدة لأغراضهم ومساعدة لهم . والشاهد على ذلك أنهم ما كانوا ليرضوا أن يعطوا العمال والجمهور المعوزين نفس ما كانوا يطالبون به لأنفسهم من الحقوق .

وأما التطرف فكان ظاهراً متجلياً في كل ما يصدر من قول أو عمل من أصحاب الرأي وأرباب اليراع الخالصين منهم فقد تناولوا طائفة من الحقائق واجتازوا بها من حدودها الأصلية اجتيازاً بعيداً ، وأهملوا حقائق أخرى ونحوها عما كان لها من المقام في الحياة الإنسانية وأحلوا محلها الحقائق المرضية عند أنفسهم ، مع أن كل حقيقة إذا جاوزت حدها انقلبت باطلاً وزوراً وجاءت بنتائج معكوسة ، كما لا يخفى . فهذا الإفراط والتفريط يوجدان في كل ناحية من نواحي نظام الحياة الذي ترتب تحت نظريات « التحرر » و « الفردية » و « الجمهورية هذه » ، ولكنه إذ كان موضوع كلامنا الآن « الناحية الاقتصادية » خاصة فلنضرب الآن صفحاً عن النواحي الأخرى ونبين ، مستعرضين هذه الناحية الاقتصادية وحدها ، ما كان ذلك النظام الاقتصادي غير المتزن الذي أقامه هؤلاء القوم بمزجهم عناصر الأثرة والتطرف بقوانين الاقتصاد الفطرية ، ثم ما نتج عن هذا النظام الاقتصادي من نتائج وخيمة .

لماذا حاربت القوميات الدين في أوروبا ؟

لفضيلة الأستاذ الشيخ مصطفى السباعي

« يكف فضيلة الأستاذ مصطفى السباعي الآن على بحث مشكلة من أهم مشكلات المجتمع العربي في العصر الحديث ، وهي تعدد الأديان في الشرق العربي وموقف غير المسلمين من الإسلام ، وموقف القوميين منه أيضاً . ويعتزم إخراج هذا البحث في كتاب ، وقد أثر فضيلته أسرة « المسلمون » بهذا الفصل من بحثه . وفيما يلي بعض أبحاث هذا الكتاب القيم الذي سيكون له من رصانته ومن حاجة المسلمين إليه أثر قوى في العالم الإسلامي . »

التحرير

انتهى الصراع العنيف الذي كان قائماً في أوروبا منذ عصر النهضة حتى نهاية القرن الثامن عشر بين الكنيسة ورجال النهضة بانهزام الأولى وانتصار الثانية ، وهذا أمر لم يكن منه بد بعد أن طغت الكنيسة في العصر الوسيط على كل شيء ، وتحكمت في شئون الدول والملوك والشعوب ، وكملت الأفواه ، وحجرت على العقول والأفكار ، وأذاقت الناس — على عهد محاكم التفتيش — شر ما عنيت به الإنسانية من ظلم وعسف واضطهاد وتنكيل وحشى ، كل ذلك فعلته الكنيسة الغربية باسم الدين ، وفعله رجالها باسم السيد المسيح ، وبررته ضمائرهم بالدفاع عن الإيمان والإنجيل . . . أفلا ترى معنى أن موقف القوميات التي انتعشت بعد ذلك الصراع المرير من إقصاء الدين عن الحياة العامة وعدم اعتباره من العناصر الرئيسية في حياة الأقوام والشعوب أمر ضروري لا مفر منه في تلك الأحوال والظروف ؟ .

ومما زاد في نفرة الناس من الدين يومئذ أنه لم يكن يروى ظمناً الشعوب في إقامة مجتمع حر كريم سعيد تتوفر له جميع وسائل الرفاهية والتطور . . والناس دائماً تلجأ إلى أديانها عند الشدائد ؛ فإذا لم تجد عندها طلبتها أعرضت عنها جانباً ، وسلكت كل سبيل يؤدي بها إلى ما تريد . . وليس أدل على ذلك من أن شعوب أوروبا في مطلع عهد النهضة كانت تتطلع إلى نظام ينقذها من تحكم الملوك والأمراء والأشراف ورجال الكهنوت ، ويزيح عن جماهيرها كابوس البؤس والحرمان والشقاء ، وينقأها إلى نصيب من العدالة الاجتماعية تشعر معه هذه الجماهير بكرامة الإنسان وشرف الحياة ، فلم تكن تجد هذا في ظل الدين الذي كان يمثل يومئذ رجال الكنيسة ، مما دعاها إلى أن تشيح بوجهها عنه ، وتلمس النجاة منه بشكها الجامد الجاف كما كان يصوره رجال الكنيسة بأعمالهم ومواقفهم . وهل كانت روسيا ترتقى في أحضان الشيوعية الماركسية لو أنها وجدت الدين الذي ينقذها من ظلم القيصرية وتألهم واستعبادهم للجماهير وازدراءهم

بكرامتها ، بل إنها وجدت على عكس ذلك ديناً يشد رجاله عجلاته بمركبة القياصرة ، ويبسط ظل حمايته على أولئك الذين امتصوا دماء الشعب ، وكانوا يبيعونه مع أرضه التي يعيش عليها كما تباع الحيوانات والسلع ١٢ .

وثمة سبب آخر لازورار القوميات عن الدين ١ . ذلك أنها وقد رأت فيه مشبطاً لعجلة الحضارة وتقدمها ، أخذت تفكر في المسافة التي تفصل ما بين نفسياتها الأصلية وبين هذا الدين الغريب ! ... فالمسيحية ليست ديانة غربية ، وإنما هي ديانة شرقية نبتت على شواطئ البحر الأبيض من مدن فلسطين ، ومن هناك امتدت إلى روما وإلى أمم الغرب . ولقد ظلت المسيحية الشرقية كما جاء بها يسوع الناصري بعيدة بعداً شامعاً عن طبائع الغربيين ونفسياتهم ، فكيف وقد جمدها رجال الدين بشكل أصبحت تنفر منه طبائعهم في مستهل نهضتهم وانبعاثهم . وخذ لك مثلاً « الألمان » فلقد كانت ديانتهم في عهد الوثنية « ديانة رجولة يلعب المعبد بها والكاهن والقرايين دوراً تافهاً ، وكانت آلهتها شبيهة بالرجال أو بضرب من القوامين بالمدارس (عمداء المدارس ورؤساء طلابها) فهم مخلوقات أشد قوة من الناس يتدخلون في الشؤون الإنسانية حسبما تمليه عليهم دوافعهم لاوفق قاعدة سارية^(١) » فهؤلاء الذين كانوا في ديانة يلعب فيها المعبد والكاهن والقرايين دوراً تافهاً ظلوا بعد تنصرهم غرباء عد ديانة يلعب فيها المعبد والكاهن والقرايين دوراً رئيسياً .

فما كاد يتاح لهم فرصة التخلص من سيطرة الكاهن والقرايين في عهد الإصلاح اللوثرى حتى كانت اللوثرية تنتشر فيهم انتشار النار في الهشيم . . . لقد وجدوا في اللوثرية — على قصورها في الإصلاح — الكوة التي تنفذ منها أرواحهم إلى عالم الانطلاق والتحرر . . . ثم ما كاد يتاح لهم فرصة التخلص من فلسفة التسامح الذي عبر عنه المسيح بقوله : « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الخد الأيسر » حتى وجدوا في « نيتشه » بطل الروح الألمانية التي تقوم على تمجيد القوة والبطولة ، وفي « هتلر » بطل القومية الألمانية التي تقوم على الصراع والكفاح ، ومن ثم لم يكن « هتلر » يطبق روح المسيحية المسالمة المتسامحة ، بل كان يرى فيها عامل إذلال وضعف لقوميته المحاربة المكافئة ، فليس غريباً أن يعلن عداؤه لها . وأن ينأى بقومه بعيداً عن مغانيها ومعالمها ! . . .

ولاننسى أن نضيف إلى ذلك كله ما جرّه النزاع الديني على أوروبا من الخراب والدمار والفناء في القرنين السادس عشر والسابع عشر وما جرته الحروب الصليبية من

قبل ضد المسلمين ثم الحروب الصليبية التي كان يعلنها البابا ضد المراطقة في بوهيميا وماجاورها . . . وضد الألبانيين ومن نحا نحوهم . . . فهذا كله حال دون جعل الدين رابطة مشتركة بين شعوب أوروبا في عصر النهضة ، وأضنى عليه في نظر رجالها رداءً مرعباً تلوح من خلاله شبح الضحايا وأنهار الدماء . . . حتى غدوا يعتقدون أن من طبيعة الدين القسوة على المخالفين ، والحرب على العقلاء المتحررين ، وخراب اللدنيات الزاهرة على يد رجال الدين المتحمسين . . . وما كانت هذه في الحق طبيعته المسيحية السمحة كما جاء بها يسوع الناصري عليه السلام ، ولكنها ثمار تلك الكهنوتية الدنيوية المتسلطة المتعصبة التي تمثلت في رجال الكنيسة في العصور الوسطى ولازمتهم حتى العصر الحديث . . .

وما ينبغي لنا أن ننتظر من منطق الثورة أن يقيم قسطاس العدالة في حكمه على طبيعة الأشياء ، وأن يفرق بين عمل رجال الدين وطبيعة الدين نفسه ؛ ذلك لأن منطق الثورة — دائماً — منطق متطرف منتقم ، لا يهمه أن يعدل بقدر ما يهمه أن يهدم ، والثورة التي بدأت على رجال الدين يومئذ لم يتح لها من ينصفها من رجال الدين أنفسهم إلا بعد أن لجت الثورة في تمرداتها حتى وصلت إلى الدين نفسه ! . . . وهيات أن يكبح جماحها وهي تحمل معول الهديم إلا بعد أن يلقي خصومها السلاح وتشعر بهزيمتهم هزيمة الأبد . . . عندئذ يرجى منها أن تنصف بعد أن أتيح لها أن تنصف وهكذا كان . . . فبعد أن كان القرن السابع عشر والثامن عشر عصر شك وإلحاد وتطرف في الأفكار ، غدا القرن التاسع عشر قرن هدوء وتفكير في المسألة . . . وما وافى القرن العشرون حتى كانت النفوس مستعدة بل ظامئة إلى العودة للدين — لا دين محاكم التفتيش والحروب الصليبية ومكاخفة الطب ودوران الأرض والتلسكوب — بل دين الحب والرحمة . . . دين الروح العالية المشرقة . . . دين الضمير التيظ الخفيف من شهوات النفس وكبرياء المادة وطغيان القوة . . . دين الحضارة الإنسانية المتقدمة في ظل الله العادل الكريم .

موقف القوميين في بلادنا :

لا أعتقد أني جانب الحق في تصوير النزاع بين الدين والقوميات في أوروبا ، وأعتقد أن النتيجة التي عرضتها عليك كافية لأن تقنعك أنه ليس من طبيعة القومية في حد ذاتها أن تنكر للدين . بل هو دعامة من دعائمها الكبرى إن أرادت لنفسها الحياة والبقاء . . . فإذا اضطرت لمعاداته كما فعلت القوميات

الأوروبية كان ذلك أمراً عارضاً خارجاً عن طبيعة القوميات وتكوينها ، وعن طبيعة الدين الصحيح وفلسفته .

وكان من المنتظر أن يقف من الدين دعاة القومية في البلاد العربية غير الموقف الذي وقفه منه بناء القوميات في أوروبا ، نظراً لاختلاف الظروف والأوضاع وطبيعة الدين في البلاد العربية — وخاصة الإسلام — وطبيعة المسيحية التي كانت تصورها الكنيسة الغربية في القرون الوسطى . . زد إلى ذلك أن القومية قد بدأت عندنا في العهد الذي انتهى فيه أو كاد ينتهي ذلك الصراع الحاد العنيف في أوروبا بين الدين والنهضة ، وقد بدأ العلماء والفلاسفة هناك يعلنون أن لا تعارض بين العلم والدين ، وأخذ علماء النفس وعلماء الأخلاق يجهرون بوجوب الرجوع إلى الدين ليمسك على الإنسانية بناء الأخلاق الكريمة التي أوشكت أن تطمس معالمها في هذا الطوفان الهائل من الحروب والمشاكل العالمية . . ولكننا ما زلنا نرى جمهرة الدعاة إلى القومية في بلادنا يقفون من الدين ذات الموقف الذي وقفه علماء النهضة في عصر القوميات من الدين وأعماله . .

وقبل أن أبسط حججهم في هذا الشأن وأناقشها نقاشاً علمياً هادئاً أرى من واجبي أن أنبه القارئ إلى أن دعاة القومية في بلادنا يتأثرون إلى حد كبير بروح الثورة التي قامت في القرن الثاني عشر وفلسفتها وأعلامها ، وأن الذين تولوا الترجمة والتعليم عندنا في العصر الحديث كان أكثرهم من رواد المدرسة اللاتينية ، فكانوا لا ينقلون إلينا إلا بقية التيار العام الذي نوج بشورة فرنسا عام ١٧٨٩ ، ثم ما تزال بقية من العقول تنضج من ثمالة حتى الآن . . أما التيار الجديد الذي بدأ في أواخر القرن التاسع عشر وأخذ يقوى في هذا القرن ، وهو الذي يعترف بما للدين من أثر في الحياة ، ويعلم أن لا تناقض بين الدين وبين الاتجاه الجديد للعلم والفلسفة ، فهذا ظل مطموس الأثر لا ينقل إلينا منه تلامذة تلك المدرسة اللاتينية العلمانية قليلاً ولا كثيراً ، ولولا أن بعض رواد الثقافة الحديثة في مصر تأثروا باتجاهات المدرسة الحديثة في العودة إلى الدين والدعوة إلى الصفاء والتعاون بينه وبين العلم والفلسفة فنقلوا إلينا أتمن ما أنتجه رجال تلك المدرسة من آثار اتجاهها وآرائها في كل من فرنسا وإنجلترا وأمريكا ، لولا هؤلاء لظلت حركة الترجمة في ثقافتنا العربية الحديثة مطبوعة بطابع القرن الثامن عشر : عصر الشك والإلحاد والثورة على الكنيسة . . .

من القديم : (*)

رأى فى التصوف

للإمام الشهيد الأستاذ حسن البنا

... ولعل من المفيد أن أسجل فى هذه المذكرات بعض خواطر — حول التصوف والطرق فى تاريخ الدعوة الإسلامية — تتناول نشأة التصوف وأثره وماسار عليه وكيف تكون هذه الطرق نافعة للمجتمع الإسلامى . وسوف لأحاول الاستقصاء العلمى أو التعمق فى المعانى الاصطلاحية ، فإنما هى مذكرات تكتب عفو الخاطر فتسجل ما يتردد فى الذهن وما تتحرك به المشاعر ، فإن تكن صواباً فمن الله والله الحمد ، وإن تكن غير ذلك فالخير أردت ، والله الأمر من قبل ومن بعد :

حين اتسع عمران الدولة الإسلامية طدر القرن الأول ، وكثرت فتوحها وأقبلت الدنيا على المسلمين من كل مكان ، وجئتهم إليهم ثمرات كل شئ ، وكان خليفتهم بعد ذلك يقول للسحابة فى كبد السماء : شرقى أو غربى خيماً وقع قطرك جاءنى خراجك . وكان طبيعياً أن يقبلوا على هذه الدنيا يتحتمعون بنعيمها ويتذوقون حلاوتها وخيراتها ، فى اقتصاد أحياناً وفى إسراف أحياناً أخرى . وكان طبيعياً أمام هذا التحول الاجتماعى من تقشف عصر النبوة الزاهر إلى لين الحياة ونضارتها فيما بعد ذلك ، أن يقوم من الصالحين الاتقياء العلماء الفضلاء دعاة مؤثرون يزهدون الناس فى متاع هذه الحياة الزائل ، ويدكرونهم بما قد ينسون من متاع الآخرة الباقى : « وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون » ومن أول هؤلاء الذين عرفت عنهم هذه الدعوة — الإمام الواعظ الجليل — الحسن البصرى — وتبعه على ذلك كثير من أضرابه الدعاة الصالحين ، فكانت طائفة فى الناس معروفة بهذه الدعوة إلى ذكر الله واليوم الآخر والزهادة فى الدنيا وتربية النفوس على طاعة الله وتقواه .

(*) إنما نعى بالقديم ما سبق نصره فى غير « المسلمون » وإن ظلت حياته نضرة متجددة .
وخالدة خلود الحق الذى تحماه والروح الكبيرة التى أملته .

وطراً على هذه الحقائق مائلاً على غيرها من حقائق المعارف الإسلامية ، فأخذت صورة العلم الذى ينظم سلوك الإنسان ويرسم له طريقاً من الحياة خاصاً ، مراحلها الذكر والعبادة ومعرفة الله ، ونهايته الوصول إلى الجنة ومرضاة الله .

وهذا القسم من علوم التصوف ، وأسميه « علوم التربية والسلوك » ، لاشك أنه من لب الإسلام وصميمه ولا شك أن الصوفية قد بلغوا به مرتبة من علاج النفوس ودوائها والطب لها والرقى بها لم يبلغ إليها غيرهم من المريين ، ولا شك أنهم حملوا الناس بهذا الأسلوب على خطة عملية من حيث أداء فرائض الله واجتناب نواهيه ، وصدق التوجيه إليه ، وإن كان ذلك لم يخل من المبالغة فى كثير من الأحيان تأثراً بروح العصور التى عاشت فيها هذه الدعوات : كالمبالغة فى الصمت والجوع والسر والعزلة . . . ولذلك كله أصل فى الدين يرد إليه ؛ فالصمت أصله الإعراض عن اللغو ، والجوع أصله التطوع بالصوم ، والسر أصله قيام الليل ، والعزلة أصلها كف الأذى عن النفس ووجوب العناية بها . . . ولو وقف التطبيق العملى عند هذه الحدود التى رسمها الشارع لكان فى ذلك كل الخير .

ولكن فكرة الدعوة الصوفية لم تقف عند حد علم السلوك والتربية ، ولو وقفت عند هذا الحد لكان خيراً لها وللناس ، ولكنها جاوزت ذلك — بعد العصور الأولى — إلى تحليل الأذواق والمواجد ، ومزج ذلك بعلوم الفلسفة والمنطق وموارث الأمم الماضية وأفكارها . خلطت بذلك الدين بما ليس منه ، وفتحت الثغرات الواسعة لكل زنديق أو ملحد أو فاسد الرأى والعقيدة ليدخل من هذا الباب باسم التصوف والدعوة إلى الزهد والتقشف والرغبة فى الحصول على هذه النتائج الروحية القاهرة . وأصبح كل ما يكتب أو يقال فى هذه الناحية يجب أن يكون محل نظر دقيق من الناظرين فى دين الله والخريصين على صفائه وتقائه .

وجاء بعد ذلك دور التشكل العملى لفكرة فنشأت فرق الصوفية وطوائفهم كل على حسب أسلوبه فى التربية . وتدخلت السياسة بعد ذلك لتتخذ من هذه التشكيلات تسكناً عند اللازم ، وانظمت الطوائف أحياناً على هيئة النظم العسكرية ، وأخرى على هيئة الجمعيات الخاصة . . . حتى انتهت إلى ما انتهت إليه اليوم من هذه الصورة الأثرية التى جمعت بقية ألوان هذا التاريخ الطويل ، والتى يمثلها الآن فى مصر مشيخة الطرق الصوفية ورجالها وأتباعها .

ولاشك أن التصوف والطرق كانت من أكبر العوامل فى نشر الإسلام فى كثير

من البلدان وإيصاله إلى جهات نائية ما كان ليصل إليها إلا على يد هؤلاء الدعاة ، كما حدث ويحدث فى بلدان أفريقيا وصحاريها ووسطها ، وفى كثير من جهات آسيا كذلك .

ولاشك أن الأخذ بقواعد التصوف فى ناحية التربية والسلوك له الأثر القوى فى النفوس والقلوب ، وللكلام الصوفية فى هذا الباب صولة ليست لكلام غيرهم من الناس . ولكن هذا الخلط أفسد كثيراً من هذه الفوائد وقضى عليها .

ومن واجب المصلحين أن يطيلوا التفكير فى إصلاح هذه الطوائف من الناس وإصلاحهم سهل ميسور ، وعندهم الاستعداد الكامل له ولعلمهم أقرب الناس إليه لو وجهوا نحوه توجيهاً صحيحاً ، وذلك ما لا يستلزم أكثر من أن يتفرغ نفر من العلماء الصالحين العاملين والوعاظ الصادقين المختصين لدراسة هذه المجتمعات ، والإفادة من هذه الثروة العلمية وتخليصها مما علق بها ، وقيادة هذه الجماهير بعد ذلك قيادة صالحة . وأذكر أن السيد توفيق البكرى رحمه الله فكر فى ذلك ، وقد عمل دراسات علمية عملية لشيخوخ الطرق ، وألف لهم فعلاً كتاباً فى هذا الباب ، ولكن المشروع لم يتم ولم يهتم به من بعده الشيخوخ . وأذكر من ذلك أن الشيخ عبد الله عفيفى رحمه الله كان معنياً بهذه الناحية ، وكان يطيل الحديث فيها مع شيخوخ الأزهر وعلماء الدين ؛ ولكنه كان مجرد تفكير نظرى لا أثر للتوجه إلى العمل فيه . ولو أراد الله والتقت قوة الأزهر العلمية بقوة الطرق الروحية بقوة الجماعات الإسلامية العلمية ؛ لكانت أمة لا نظير لها : توجه ولا تتوجه ، وتقود ولا تنقاد وتؤثر فى غيرها ولا يؤثر شئ فيها ، وترشد هذا المجتمع الضال إلى سواء السبيل .

مسئولة الولاية

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من ولى من أمر المسلمين شيئاً فولئى رجلاً وهو يخدم من هو أصلح للمسلمين منه ، فقد خان الله ورسوله » .

« رواء الحاكم فى صحيحه »

مع العارفين

الإمام المتحن : أحمد بن حنبل

(٤)

... فدخل أحمد بن حنبل ... شيخ اسم اللون ، مديد القامة ، قد قوسه مر السنين وإلحاح المحن وتعاقب السفرات الطوال سيراً على القدم ... يجلله مشيب وقور ، ويسطح من وجهه ورع صارم جاد لا يلبث من يراه أن يتأثر به .

ونظر المعتصم يتفرس في الشيخ القادم عليه فإذا طلعة الشيخ الجليل تروعه بما لم يجد له مثيلاً في حياته ... لقد أحس كأن قلبه يتحول في صدره من مكان إلى مكان .

إن ابن أبي دؤاد على طول صحبته للخليفة ، وعلى غزارة علمه وبراعة منطقته لم يؤثر في نفسه قط بمثل ما أثرت طلعة ذلك الشيخ الجليل الورع ! ! . وارتعشت نبرات صوت الإمام المريض الهزيل وهو يخفي أمير المؤمنين : السلام عليكم يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

وأحس المعتصم كأن نبرة الصوت الجليل المرتعش تملأ قلبه هيبة ، وتغسل من نفسه للوجدة ؛ فلم يتالك أن قال للإمام : — أدن .

فدنا الإمام المتحن وهو يرسف في أربعة أغلال ثقال من الحديد ، قد أوهنت قوته وأثقلت قدميه عن المسير ، فكاد ينجر على وجهه وهو يدنو من الأمير . وزاد تأثر المعتصم لما يرى ، فقال للإمام : — أدن .

فاستمر الإمام يدنو وهو يتعثر في أقياده ، وكان قد ربطها في تسكة سرواله ، وأمسك التسكة بيده يرفع بها ثقل الأقياد عن قدميه ، فلم يكن ذلك المنظر المهين الأليم مما يتلاءم مع الجلال البادي على الشيخ المهيب ؛ فرق له المعتصم وزاد تأثره . وقال : — أدن .

وما زال المعتصم يستدنيه حتى قال له : — اجلس .

جلس أحمد والقوم صامتون مأخوذون . فالتفت المعتصم إلى المعتزلة وقال : أليس قد زعمت لي أنه شاب حدث السن ، وهذا شيخ مكهل ؟ !
فسكت المعتزلة ولم يجبوا بشيء .

فبسترد أحمد بن حنبل قوته ، ويأنس بعض الشيء إلى إنصاف المعتصم فيقول :
أتأذن لي يا أمير المؤمنين في الكلام ؟
المعتصم : تكلم .

أحمد : إلام دعا ابن عمك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

المعتصم : دعا إلى شهادة أن لا إله إلا الله .

أحمد : فأنا يا أمير المؤمنين أشهد أن لا إله إلا الله .

ونزات كلمات أحمد في صدق لهجته وعمق يقينه على قلب المعتصم كأن لم يسمع أحداً
ينطق بالشهادة بين يديه إلا اليوم . . واستطرد أحمد رضى الله عنه يقول :

— إن هؤلاء يا أمير المؤمنين يدعونني أن أقول إن القرآن مخلوق ، وهو شيء لا أجده في كتاب الله ولا في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم . يا أمير المؤمنين : حدثنا يحيى بن سعيد عن شعبة قال حدثني أبو حزة قال سمعت ابن عباس يقول : إن وفد عبد القيس لما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرهم بالإيمان بالله ، فقال أتدرون الإيمان بالله ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ؟ قال : « شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وأن تعطوا الخمس من المغنم » ؟ فهذا ما يرويه جديك ابن عباس عن ابن عمك رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يعلم الناس الإيمان ، وليس فيه شيء مما يدعيه هؤلاء من خلق القرآن .

وتحدر الإسلام الصافي الذي لا يشوبه كدر ولا تعقيد إلى قلب المعتصم الساذج من
فم هذا الإمام الورع الصادق فلم يتألك المعتصم أن قال :

— إني لم آمر فيك بشيء ، ولولا أنني وجدتلك في يد من كان قبلي لما تعرضت لك !
ثم أطرق قليلاً وكأنه قد ضجر من تلك الفلسفة التي يراد إدخالها على عقائد الناس وهو نفسه ليس منها في قليل ولا كثير ؟ والتفت إلى عبد الرحمن بن إسحاق فقال له :
— ألم آمرك أن ترفع الحنة ؟

فقال أحمد بن حنبل في نفسه : الله أكبر ! ! إن في هذا الفرع للمسلمين !
وكان المعتصم رأى أنه لم ينصف المعتزلة ، وأنه لم ينفذ وصية أخيه المأمون إليه في
مناصرة المعتزلة ، وقمع ما عليه أحمد بن حنبل وأضرابه ، فاستدرك قائلاً لهم :

— ناظروه وكلموه .

فأبطأ المعتزلة وكأنهم أخذوا بما جأهم من أمر الخليفة ، فقال المعتصم :

— ناظره يا عبد الرحمن . كلمه . !

— عبد الرحمن : ما تقول في القرآن ؟

— أحمد بن حنبل : لا يجيب .

— المعتصم : أجه يا أحمد .

— أحمد بن حنبل يسأل عبد الرحمن : ما تقول في علم الله ؟

— عبد الرحمن : لا يجيب .

— أحمد بن حنبل : إن القرآن من علم الله ؟ فمن زعم أن القرآن مخلوق ، فقد

زعم أن علم الله مخلوق ، ومن قال بذلك فقد كفر .

— عبد الرحمن : لا يجيب .

— المعتزلة : يا أمير المؤمنين لقد كفرنا وكفرك ، ولقد كفر بهذا الكلام

رسولك بالأمس حين قال له : إن علم الله مخلوق .

— فلا يلتفت المعتصم إلى تحريضهم .

— فيرتبك المعتزلة قليلا ، ثم ينبرى عبد الرحمن فيقول :

— إن الله كان في الأزل ولم يكن معه قرآن .

— أحمد بن حنبل : لقد قلت إن القرآن من علم الله ، فإذا قال قائل كان الله

ولا قرآن معه فكأنه قال : كان الله ولا علم له ...

— أحمد بن أبي دؤاد : هو ضال مضل مبتدع يا أمير المؤمنين ، وهؤلاء قضاتك

والفقهاء فسلمهم !

— المعتصم : ما تقولون فيه ؟

— الفقهاء والقضاة : هو ضال مضل مبتدع ...

فيتلطف المعتصم إلى الإمام ويقول له :

— أجبني يا أحمد إلى هذا حتى أجعلك من خاصتي وممن يطأ بساطي ...

— أحمد بن حنبل : يا أمير المؤمنين ، يأتونني بآية من كتاب الله أو سنة رسوله

صلى الله عليه وسلم حتى أجيبهم إليها .

أحمد بن أبي دؤاد : فأنت لا تقول إلا ما في كتاب الله وسنة رسوله ؟

— أحمد بن حنبل : وهل يقوم الإسلام إلا بهما ؟

— رجل من المعتزلة : إن الله يقول : « خالق كل شيء » والقرآن شيء
فهو — إذاً — مخلوق .

— أحمد بن حنبل : إن هذه الآية عامة أريد بها التخصيص لا العموم كقوله تعالى
عن الريح التي أهلك بها قوم هود : « تدمر كل شيء بأمر ربها » فهل دمرت كل شيء
حقاً أو أنها لم تدمر إلا ما أراد الله ؟

المعتزلي : لا يجب :

معتزلي آخر يقول : إن الله يقول : « ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث
إلا استمعوه وهم يلعبون » فهل يكون محدثاً إلا المخلوق ؟

أحمد بن حنبل : إن الذكر الذي هو القرآن جاء في قوله سبحانه : « والقرآن
ذی الذکر » فهو هنا معرف بالألف واللام وفي الآية الأولى بدون ألف ولام
فهذه غير تلك .

أحد المعتزلة — إن عمران بن حصين يروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
قوله : « إن الله خلق الذكر » .

وفي ذلك تقرير من النبي عليه السلام بأن القرآن مخلوق .

أحمد بن حنبل : أخطأت فالرواية التي روينها عن عمران وعن غيره من نقات
أهل الحديث هي : « إن الله كتب الذكر » .

معتزلي آخر : أليس رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « تقرب إلى الله بما
استطعت فإنك لن تتقرب إليه بشيء هو أحب إليه من كلامه ؟ »

أحمد بن حنبل : بلى ، قد روى ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

المعتزلي : إن فيه دليلاً على أن القرآن مخلوق !

أحمد بن حنبل : لست أجده في هذا الدليل .

المعتزلي : إذا قرأت القرآن لتتقرب به إلى الله ، ألست تتلو كلمات مؤلفة من حروف
وأصوات ؟ وهل يتألف من حروف وأصوات إلا الكلام المخلوق ؟ فهل تجد لك مفراً
بعد إذ أمرنا النبي صلى الله عليه وسلم أن نتقرب إلى الله بتلك الألفاظ المخلوقة إلا أن
تسلم بأن القرآن مخلوق ؟

أحمد بن حنبل : القرآن كلام الله قديم غير مخلوق ، وأما أفعالنا فيه إذا كتبناه
أو تلفظنا به فهي مخلوقة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « زينوا القرآن

بأصواتكم» فالقرآن — إذاً — غير أصواتنا المخلوقة التي نزينه بها ... الكلام كلام الباري ، والصوت صوت القاري .

معتزلي آخر : إن ابن مسعود يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم : « ما خلق الله من جنة ولا نار ولا سماء ولا أرض أعظم من آية الكرسي » . وهذا صريح في أن آية الكرسي مخلوقة ، وهي من القرآن .

أحمد بن حنبل : فهل تجد في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الخلق وقع على آية الكرسي ؟ إن الحديث صريح في أن الخلق إنما وقع على الجنة والنار والأرض والسماء ولم يقع على القرآن .

أحمد بن أبي دؤاد : إن تشبثك بأن القرآن كلام الله غير مخلوق معناه أنك تنسب إلى الله جوارح يتكلم بها كالمخلوقات ، وتشبيه الله بالمخلوقات كفر .

أحمد بن حنبل : هو أحد صمد لم يلد ولم يولد ، لا عدل له ولا شبيه ، وهو كما وصف نفسه ... حدثني عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن سالم عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال . « إن الله كلم موسى بمائة ألف كلمة ، وعشرين ألف كلمة ، وثلاثمائة كلمة وثلاث عشرة كلمة فكان الكلام من الله والاستماع من موسى ، فقال موسى : أي رب أنت الذي تكلمني أم غيرك ؟ قال الله تعالى : يا موسى أنا أكلك لأرسل بيني وبينك » . فهذا ما يخبر به رسول الله عن ربه ، وأنا لأقول إلاما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أحد المعتزلة : كذبت على رسول الله

أحمد بن حنبل : إن يك هذا كذبا مني على رسول الله فقد قال الله تعالى : « وكلم الله موسى تكليما » وقال : « ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » فهو قول منه سبحانه وليس خلقا .

وهكذا ظلوا يسألونه وهو يجيب ويعلو صوته عليهم ، حتى اقترب الزوال دون أن يفجموه أو يلزموه الحجة ؛ فقال لهم المعتصم قوموا واخلوني مع أحمد بن حنبل وعبد الرحمن بن إسحاق ...

صنعت يد الإله !

لسماحة القاضي محمد محمود الزيرى

شاعر اليمن

السموات شَيِّقَاتُ ظِلَاهُ والفضاء والنجوم والأضواء
والهدى والأملأك والوحى والتَّنْزِيلُ. والمعجزاتُ والأنبياء
والغيوث السحابة والوابلُ المذُرُّ رَارُ والمُعْصِرَاتُ والأنواء
كلها لوعةٌ إلى المصطفى لها دى وشوقٌ ونشوةٌ وازدِهاه
تنظرُ البقعة التي تسطعُ البُشرى عليها ويهتفُ البشره
والنبي الكريم يولد في بيتٍ فقيرٍ يثوى به فقراه
حملوه طفلاً كما يحمل الأطفالُ فيهم ويحضنُ الأبناء
ليس يدرون ماتمُدُّ يدُ الله إليهم وما يُريدُ القضاء

ودعا اللهُ والديه إليه ليربِّي الحبيبَ كيف يشاء
وعجيبٌ بَسْمَى يتيمًا ويدعى وهو نجمٌ قد أنجبه السماءُ
صنعتُ يدُ الإله كما تُصنع في البحر درةٌ عصماءُ
واصطفته لها فإذا عسى أن تصنعُ الأمهاتُ والآباءُ
نفحته بروحها فإذا البية دُ ضلوعٌ تؤويه أو أحناءُ
وإذا اتقفر وهو جذبُ رياضٍ وإذا الأفق وهو ليل ضياءُ
وإذا الصخر أكبده ماؤها الرخمة والحُبُّ والهدى والوفاءُ
وإذا الغابة الخيفة أمنُ وإذا الأذوبُ لحيثة شاءُ

وإذا الكونُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ سِفْرٌ تَجَلَّى لَهُ بِهِ الْأَشْيَاءُ
عَلِمَتْ ذَلِكَ الْيَتِيمَ فَمَا الْعِلْمُ وَمَا حُكْمُهُ وَمَا الْحِكْمَةُ

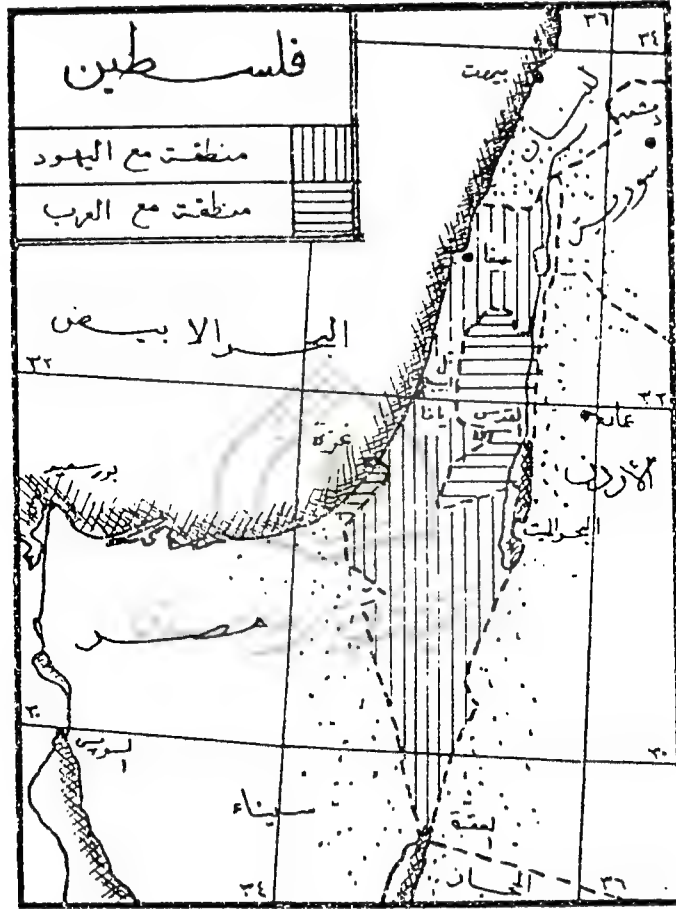
مِنْ لِقَابِ الظَّالِمَانِ فِي وَقْدٍ صَحْرًا ۚ تَلْظَتُ مِنْ حَرِّهَا الْأَفْيَاءُ !
مِنْ لَأْخِلَاقِهِ النَّبِيلَةِ فِي شَعْبٍ غَرِيقٍ فِي إِنْجَمِهِ النَّبْلَاءُ !
مِنْ لَأَهْدَافِهِ وَلَيْسَ وَرَاءَ الْبَيْتِ إِلَّا الصَّحْرَاءُ وَالظُّلُمَاءُ !
يَقْشَعِرُّ النَّسِيبُ فِي حَرَمِ اللَّهِ إِذَا قَهَمَتْ بِهِ الْخَنَفَاءُ
مِنْ لِنَشْرِيعِهِ الرَّحِيمِ وَدِينُ الْقَوْمِ فِيهِمْ تَنَاحَرُ وَدِمَاءُ
لَيْسَ إِلَّا الْفِرَارُ بِالْخُلُقِ الطَّاهِرِ وَالْإِعْتَصَامُ وَالْإِحْتِمَاءُ
لَيْسَ إِلَّا السَّمَاءُ لِلْمَلِكِ الْإِذَا سَانِ تَوَرَّى فَوَادَهُ أَوْ حَرَاءُ

وَأَتَنَحَى الْمُصْطَفَى إِلَى الْجَبَلِ الصَّامِتِ حَيْثُ الْقُدْسِيَّةُ الشَّمَاءُ
حَيْثُ لَا شَاغِلٌ هُنَاكَ عَنِ تِلْكَ وَلَا ضَجَّةٌ وَلَا ضَوْضَاءُ
حَيْثُ يُطَوَّى فِي ذَلِكَ الْعَمَتِ مَا فِي الْأَكُونِ إِلَّا الْحَقِيقَةُ الْعَالِيَاءُ
وَهَبَ اللَّهُ ظِلْمَةَ الْغَارِ نُورًا مِنْهُ تُنْمَخِي فِي ضَوْئِهِ الْأَضْوَاءُ
جَبَلٌ فِي مَجَاهِلِ الْبَيْدِ لَا تَدْرِي بِأَفْيَاءِ ظِلِّهِ الْبَيْدَاءُ
رَفَعَتْ رَأْسَهُ عَلَى كُلِّ طَوْدٍ عِزَّةً أَحْمَدِيَّةً قَعَسَاءُ
فَحَوَّى مَا حَوَّتْ جَوَانِحُ جَبْرِيلَ وَمَا أَكْرَمَتْ بِهِ سَيْنَاءُ
فَجَرَّ اللَّهُ فِي حَرَاءٍ يَنْبَايَهُ مَعَ الْمَدَى وَهُوَ صَخْرَةٌ صَمَاءُ
لَسْكَانُ النَّبِيِّ فِيهِ لِسَانٌ أَلَّا يَكُونَ يَحْكِي عَنْ دَوْحِهِ مَا تَشَاءُ
نَبَضَتْ فِي طَمُوحِهِ قُوَّةُ اللَّهِ فَخَفَّ الثَّرَى وَهَانَ الْفَضَاءُ
عَاكَفَتْ فِي حَرَاءٍ لَا الْعِيشَ يَصْبِيهِ وَلَا مَحَبَّةَ وَلَا الْعِشْرَاءُ
وَإِذَا جَبْرِيلُ يَبْدُو كَمَا تَبْدُو الْأُمَانِي وَيَسْتَجَابُ الدَّعَاءُ

حاملاً ما تنوء عن حملة شم من الضحى والكواكب الزهراء
 كلمات الإله فيها من الله جلال وقوة وبقائه
 وبآياتها النظام الذى قام به الأرض واستنارت ذكائه
 تلمس القبر لمسة فإذا المية ت حى تعنو له الأحياء
 من تعامى فى يومها جاءه يوم عسير ونكبة عسراء
 لو وعابها حيراء لاندك أو ذا ب وذابت من حوله الصحراء
 ليس إلا فؤاد أحمد يؤيه وإلا الملائك الأصفياء
 غطه جبريل فارتاع لما ظن أن الذى به إغماء
 إنها صدمة يربى بها قلب نبى ومحنة وابتلاء
 حملتها ضلوع جبريل ساعا ت ففانت ومستها الإعياء
 واصطلاها قلب النبى فما ضج ولا نال من قواه العناء
 قيل اقرأ وحى السماء وهذا جبريل وهذه القلباء
 قم فإن الأصنام تحتل بيت الله والمفسدون والسفهاء
 ضجت الأرض والسماء فما استيقظ عقل ولا صحا عقلاء
 ستلقى الأذى من الناس والبلوى وتصميك منهم الأرزاء
 سوف يعطونك الجزيل ومأم أصدقاء ولا همو أسخياء
 إن هذى الدنيا أمامك فاحذر سُمها فهي حية رقطاع
 لاتبع سؤدد السماء فما فى منطق الريح أن تباع السماء
 فى يديك النجوم زهراً فما الصفة راء إن حزتها وما البيضاء
 كل نفس لها إليك اشتياق كل فضل له إليك انتماء
 قم وأنذر فالشر قد طبق الأرض وعم الظلام والإدجاء
 واستلم موكب الخليفة أنت الذى جم فى ليلها وأنت اللواء

الأرض المباركة فلسطين

● إن فلسطين بلاد إسلامية منذ أربعة عشر قرناً ، وقد ظلت الموجات العربية قبل الفتح الإسلامي وبمده تتوالى عليها من آن لآخر ، وإن الصبغة العربية راسخة فيها كل الرسوخ . ومن برهان ذلك أسماء المناطق فيها مثل « مرج ابن عامر » وقرى بني صعب وبني زيد والحارثية والقسطل ووادي



على وجبل القيسية وبني نعيم إلى غير ذلك من أسماء الأماكن والقبائل والجمائل والعشائر العربية في مختلف أنحاء فلسطين . وكانت في فلسطين أشد الحملات الإسلامية لمقاومة الصليبيين بقيادة صلاح الدين ومن جاء بعده من الملوك والسلاطين المجاهدين حتى أجلوهم عنها وعن سائر بلاد المسلمين وبقيت إسلامية منذ ذلك التاريخ . وقد لبثت فلسطين تحت الحكم العثماني نحو أربعمائة سنة حتى احتلها الإنجليز سنة ١٩١٨ .

● تبلغ مساحة فلسطين ١٠٤٢٩ ميلاً مربعاً تساوي ٢٧ مليون دونم وهي تؤلف القسم الجنوبي من سوريا « بلاد الشام » .

● أما حدودها الرسمية كما كان الحال في زمن الاحتلال البريطاني ، فمن الجنوب تحدها أراضي سيناء المصرية حتى رأس طابة على خليج العقبة ، ومن الشرق نهر الأردن وأرض « مملكة الأردن » ومن الشمال أراضي جمهوريتي سوريا ولبنان ، ومن الغرب البحر الأبيض المتوسط .

قضیۂ فلسطین :

[illegible]

في حالات إدارية وسياسية واقتصادية من شأنها تسهيل إنشاء الوطن القوي اليهودي ، وقد قامت حكومة الانتداب بهذه المهمة أتم قيام !

لقد كانت فلسطين حين الاحتلال الإنجليزي عربية الصبغة وكان عدد سكانها ٧٥٠ ألفاً منهم حوالي خمسين ألفاً من اليهود . فتكون نسبتهم إلى مجموع السكان نحو ٦٪ . وجدير بالذكر أن عدد اليهود في فلسطين كان في سنة ١٨٤٥ ، ١٢ ، مئتي عشر ألفاً وفي سنة ١٨٨١ ، ٢٥٠ ألفاً . ومنذ وقعت البلاد تحت الاحتلال البريطاني فتح الإنجليز أبواب الهجرة اليهودية على مصاريعها حتى بلغ عدد اليهود السكان في سنة ١٩٣٩ نحو ٤٠٠ أربع مائة ألفاً من مليون و ٤٠٠ ألف مجموع سكان فلسطين ، وتدل الإحصاءات الرسمية على أن عدد المهاجرين اليهود الذين وصلوا فلسطين منذ قامت حكومة إسرائيل سنة ١٩٤٨ إلى منتصف سنة ١٩٥٢ نحو ٦٥٠ ألفاً وما زالت عشرات الألوف منهم تصل فلسطين تباعاً رغم ما يمانون من الأزمة الاقتصادية وقلة المساكن لأنهم يريدون أن يصل عددهم إلى مليونين في وقت قريب .

مهاد عرب فلسطين :

وظلت القضية بمعزل عن العالم العربي قرابة الثلاثين عاماً لم تنقطع فيها ثورات عرب فلسطين فقد وقفوا وحدهم في الميدان يذوبون عن وطنهم ويحاربون الإنجليز واليهود على السواء لاذ استطاع اليهود في ظل الانتداب البريطاني أن يثبتوا مستعمراتهم ويشيدوها في كل بقعة فوق أرض فلسطين ومن تحت أرضها ، محصنة بالأبراج ومجهزة بالدفاع ، ولا يتصور — في ميزان العقل السليم — أن يتم ذلك الاستعداد الهائل بغير علم الإنجليز . في الوقت الذي كان الإنجليز فيه يعاقبون بالإعدام كل عربي يحرز سلاحاً ، وثبت العرب في كفاحهم رغم التفاوت الواضح في ميزان القوى ذلك لشعورهم بأنهم إنما يدافعون عن مقدسات للمسلمين غالبية عزيزة .

فهناك المسجد الأقصى الذي أسرى الله بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم إليه ومنه مكان المعراج الشريف إلى السماوات العلى إلى حيث دنا فندى فكان قاب قوسين أو أدنى ، وهو أولى القبلتين وثالث الحرمين . وفي الجدار الغربي منه يوجد مكان البراق النبوي الشريف حيث يروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ترجل فيه من فوق البراق ليلة الإسراء (وهو مكان مبارك يزوره المسلمون) .

وفلسطين إلى ذلك ملائ بقبور الأنبياء وافر من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين ممن نزلوها في عهد الفتوح الإسلامية ولا تخلو مدينة من مدن فلسطين وقراها الكبرى من مقبرة للشهداء ، وفيها مكتبات إسلامية ومخطوطات أثرية نادرة ومساجد عديدة عظيمة أصبحت كلها معرضة للهدم والإزالة وانتهاك الحرمات بأيدي اليهود . فقد دأبوا على هدم المساجد بالفعل ونهب القبور وإزالة معالمها . وبهذا تتجلى عداوتهم الباغية .

ثار العرب على هذه المؤامرة الاستعمارية عدة ثورات دامية فسكات ثورة القدس سنة ١٩٢٠ ثم ثورة يافا سنة ١٩٢١ . وكان من أشد ثورات عرب فلسطين ثورتهم سنة ١٩٢٩ بدأت في القدس على أثر مظاهرة صاحبة حاشدة نظمها اليهود مطالبين بموضع البراق الشريف فغضب المسلمون لهذا التحدي وقاموا بمظاهرة عنيفة تحولت إلى ثورة عارفة لم تلبث أن انتقل لهيئتها إلى الخليل وصفد ويافا وحيفا وغيرها من أنحاء فلسطين وفي سنة ١٩٣٣ نشبت الثورة في يافا والقدس وحيفا ونابلس . وفي عام ١٩٣٦ كانت الثورة الكبرى والإضراب العام الشامل اللذان استمرتا ستة أشهر كاملة ثم

توقفت الثورة لتدخل ملوك العرب فلما فشلت مساعيهم وخاب الأمل فيهم عادت الثورة إلى الاشتغال سنة ١٩٣٧ واستمرت ملتزمة إلى صيف سنة ١٩٣٩ .

في هذه الثورات الدامية استعذب أهل فلسطين الموت في سبيل الله وضحوا بالنفس والنفيس ، وكم بذل عرب فلسطين أرواحاً غالية ودماء زكية ولاقوا من عنث الإنجليز ومظالمهم ، ولكنهم مع ذلك كبّدوا البريطانيين وحلفائهم اليهود خسائر كبيرة في الأرواح والأموال وأتلفوا للجيش البريطاني الكثير من قطاراته الحربية ومعداته العسكرية حتى اضطرت إنجلترا أن تبتعث إلى فلسطين في سنة ١٩٣٦ و ١٩٣٧ بجيش جرار وأبارب كثيرة من طائرات القتال والسفن الحربية وعلى رأس ذلك المارشال ديل والمارشال وايغل من كبار قادة جيشها .

وأخيراً كانت المهزلة التي يعرفها الجميع ولا يزال عرب فلسطين يعانون المرّة من بلاياها . وحسبنا هنا أن نشير إلى أن خذلان العرب فيها كان لإخلاصهم إلى الطريق السياسي العقيم في علاج القضية ، ولقد قال بن غوريون ، وهو يعني ما يقول :
« إن ما أحرزناه من النجاح ٩٧٪ منه ، يعود الفضل فيه للسياسة ، ٢٪ منه فقط لجهودنا الحربية » .

إن قضية فلسطين هي قضية الإسلام والمسلمين الأولى ، والمركة الهزيلة التي حدثت قبل أربع سنوات لم تكن إلا بداية معركة رهيبة تتحالف فيها كل قوى الدنيا على الإسلام وقد كان المسلمون بعد عصر الوطنيات الضيقة والقضايا المتفرقة التي مزقت شملهم كانوا في حاجة إلى قضية واحدة تجمع شملهم من جديد ويستشعرون قداستها جميعاً ، ويتكشف لهم فيها وحدة أعدائهم الكثيرين حين يتصل الأمر بالإسلام والمسلمين وأهم من ذلك كله أنهم كانوا في حاجة إلى جبهة ترد لهم طبيعتهم المقاتلة التي كانت فيهم أيام صلاح الدين ، والتي انبعثوا بها بعد فترة من الذل والهوان لا يشبهها في التاريخ إلا عصرنا الذي نعيش فيه ! !
اللهم انقح في المسلمين من روحك !

اعتذار

يؤسفنا أن يصل العدد الأول إلى حضرات القراء متأخراً عن مواعده أسبوعاً لسبب لا حيلة لنا فيه ؛ وهو اختفاء نوع الورق الذي تعودنا الطبع عليه من السوق ، وقد حاولنا جهدنا أن نحصل عليه بأي ثمن فلم نوفق ، فاخترنا أخيراً نوعاً قريباً منه .

ونحن نرجو أن يعذرنا الأخ القارئ ، ونعيد من جانبنا ألا يتكرر هذا التأخير ، ونسأل الله أن يوفق ويعين .

في أفق العلم الإسلامي

معركة قريظة:

إذا كان جهل الأمة الإسلامية بنفسها ورسالتها جعلها تنهالك أمام الفتنة العانية والثقافة المسمومة التي نظمها مؤامرات أعداء الإسلام الكثيرين ، فإن جهلها بهؤلاء الأعداء قد مكن لمؤامراتهم كل تمسكين وجملهم ينالون منها ويبعثون بها وهي في غفلة تامة عما يراد بها ... وكمن عدو لبس لها ثوب صديق فأوته وأكرمه ، بل وتلمذت عليه وأخذت عنه ، وربما وضعته موضع الزعامة وهو يحث أصول عقيدتها ومقومات شخصيتها ... لذلك كانت معرفة المسلمين لأعدائهم أساساً يجب أن يسبق كل خطة وأن تتجدد به سياسة العالم الإسلامي . و « العداء » الذي عاناه الإسلام والمسلمون قديم ، بدأت طلائعه مع طلائع الإسلام في حجر نبيه صلى الله عليه وسلم ، وكان وجهه السافر الصريح أنه عداء للعقيدة والدعوة ، ونكران للوحي وتحد لأمر الله عز وجل ، وكانت جريمة هذا العداء في ميزان أصحاب الدعوة جريمة بهذا المعنى « ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون » ، واستمرت المعركة بين العقيدة وأعدائها ولكن طبيعة المعركة بقيت واحدة لا تتغير : « الذي آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً » . ولما حادت المعركة عن طبيعتها يوماً في أنفس نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعقبهم الله بالهزيمة في أحد : « وعصيت من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم » . وهكذا مضت معارك الإسلام واتصلت حلقاتها ، وتآلت فيها على المسلمين قوى رهيبية ما أكثر ما اختلفت فيما بينها ولكنها انفتحت دائماً على مطاردة الإسلام ، ولم تأل جهداً في استئصال شأفته . وكتب تاريخنا من ذلك أسفاراً دامية يمكن أن نجعل عنوانها الآية التي نسيها المسلمون : « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا » — وإذا صح أن بعضاً من هذه القوى لم يفهم بالعالم الإسلامي إلا خباياه وموارده الاقتصادية ولم يدفعه إلى الاعتداء عليه هوى ديني معين أو مستر ... إذا صح هذا ، فإن هؤلاء المعتدين ما لبثوا أن وجدوا دون مطامعهم المادية عقبة كؤوداً يجب أن يحسبوا حسابها ، وجدوا ديناً من نوع جديد ، وكتابات سماوية قويا صريحاً غير الطلاسم التي ألفوها ... وجدوا قرآناً يتحدث عن العبادة كما يتحدث عن القتال ، ويجعل بذل الدم في سبيل الحق أعز الفريات إلى الله ... وجدوا نظاماً لا يكفي بالدعوة الجميلة النظرية إلى مكارم الأخلاق ولكنه يفرض لحمايتها حدوداً رهيبية في قوانين الأمة ، ويجعل تطبيق هذه القوانين شرط صحة الإيمان ، وجدوا شريعة تزرع في القلوب حباً عالياً لا يسمح بفرقة يستفيد منها غاصب ، وتكفل للمجتمع نظافة لا تبيح للعفريات أن تنال من تماسك الأمة شيئاً ، وتشمل في المشاعر جذوة الويل لمن يستثيرها فيصل ناراها ...

ولو أن هؤلاء المعتدين أرادوا حقاً أو تجارة بريئة ما عنسهم من كل ذلك شيء ، ولكنهم معتدون ، وللمعتدى ضراوة تنكر الحدود ، وغاية لا يدركها إلا بترويض فريسته حتى تستسلم له ، فكيف يسمح إذاً بسلطان دين خطير كالإسلام ؟ إن من مهمته إذا وجد الدين ذا سلطان أن يقوضه ،

وإذا وجدنا نائماً أن يقطع أسباب يقظته ... وهكذا يلتقي الأعداء جميعاً في محاربتهم للإسلام وإن تباينت أساليبهم ، فلانجلترا أسلوها ، ولأمريكا أسلوها ، ولفرنسا أسلوها ، ولهولندا أسلوها ، ولروسيا أسلوها ، ولإيطاليا أسلوها ، ولألمانيا أسلوها ، ولألمانيا أسلوها ، وللهندوك أسلوهم ... وهلم جرأ ... وهلم جرجره .

وأنت حين تقرأ التاريخ في ضوء هذا المعنى تفهم أشياء كثيرة ، وحين تقرأ الواقع بعد ذلك تتجلى لك حقائق خطيرة ، ترى مثلاً — وهو مثل قريب — كيف قضت تركيا حين كانت مقر الخلافة العثمانية — زمناً طويلاً تعاني المر من عداء الدول ومؤامراتها وكيف تألبت عليها قوى الدنيا من حرب إلى حرب ومن دسيسة إلى دسيسة ، ولسكتنا نرى تركيا نفسها بعد أن ذهبت عنها الخلافة ، وبعد أن سلخ أتابورك أوضاعها من أحكام الإسلام وألبسها القبة وحرما من اللغة العربية (وإن كان لم يستطع أن يقطع شجرة الإسلام من جذورها ، لأن جذورها في قلوب لا يحكمها الجيش والقانون وفي يد الله الذي أفضى إليه أتابورك بما قدم وهو عنده الآن يلقي حسابه) ... نرى تركيا في الأعوام الثلاثين الأخيرة سالمة آمنة لا يعتدى عليها أحد ، فإذا ذكرنا مع ذلك قول الله سبحانه « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ! » لم يسمنا إلا أن نقول : صدق الله العظيم !! وقد حدثني رجل كبير في العالم الإسلامي ، ويروي هذا الخبر معه ثلاثة آخرون كبار ، أن الذي قام به أتابورك من إبعاد تركيا عن الإسلام لم يكن من بنات فكره ولا عقله المدهش ! ولكنها شروط أمثلها عليه الدول في لوزان ، ويعلم ذلك زملاؤه الكبار الذين لا يزال بعضهم حياً يرزق !

وقد عجب كبار ضباط الجيش المصري وغيرهم ، وكان يحضر جمعهم اللواء الرئيس محمد نجيب ، حين استفتح الأستاذ الدكتور مصطفى الحفناوى محاضراته عن قناة السويس في ناي الجيش بقوله إنه وقع على وثيقة خطيرة تثبت أن اقتراح حفر القناة مشروع قديم للصليبيين أريد به أن تقام في منطقة القناة دولة صليبية تمتد من بورسعيد إلى بولاق في القاهرة لتمزق كيان الدولة الإسلامية ... عجيبوا من ذلك ، ولو أضاف الدكتور إلى ذلك أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين اقترح عليه أن يحفر قناة تصل البحرين الأبيض والأحمر قال : أخشى على المسلمين من الفرنجة ، إذا لزداد عجبهم ، ولعلموا أن المحور الذى تدور عليه حوادث التاريخ محور آخر تماماً غير الذى تعلمناه في منهج دانتلوب ، ولأدركوا من ذلك أنه ما لم يتغير الأساس الذى قامت عليه معارفنا في عهود الذل والحيرة ، وما لم تتقرر مناهج التعليم والتربية وسياسة الأمة كلها على فلسفة واحدة في معرفة العدو والصديق ، وأساس العداوة ، وأساس الصداقة ، ما لم يتحقق ذلك كله فإن كل أمل سراب ، وكل الزهور والرياحين التى تأخذ الأبصار حيناً ، ليس يحملها إلا شوك ضارب الجذور ، لا تلبث هى أن تذبل عليه ثم تنجف ، ويبقى الشوك القديم ليقض المضجع ويدعى الأيدي الغافلة ... استأصلوا الشر من جذوره ، استأصلوه من حيث نبت ، وازرعوا زرعة الخير في هذه الأعماق وابدأوا بالألف والباء لا بالياء « ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

هل نحن مسلمون ؟

هل رضينا — مادنا مسلمين — أن نحمل أمانة الإسلام كاملة ؟

هل حكمنا الإسلام وتاريخ الإسلام في معرفة العدو والصديق ؟

هل نأخذ الله على الجِد في أخذ أنفسنا وأوضاعنا بالإسلام ؟

هذه أسئلة لا بد لها من جواب ، لا على المنابر فقد ضجت المنابر من خطبائها ، ولكن في

واقعنا الأليم المرير .

أخبار متفرقة

● أثارت مشكلة التعويضات الألمانية لإسرائيل ضجة شديدة وحنقا في الأنظار الإسلامية جميعاً ، واحتجت جامعة الدول العربية لدى حكومة ألمانيا الغربية على ذلك ، ونحن وإن كنا لا نسيغ بحال أن تنزل ألمانيا إلى هذه الهاوية من حيث تنكرها لمبادئها القديمة في محاربة رذائل اليهود ، وتنكرها للصداقة القديمة التي تربطها بالعرب والمسلمين ، ولا تقبل لها في ذلك عذراً ، إلا أننا نرى أن هذه الحادثة إلى جانب غيرها الكثير يجب أن توجه ساسة العرب إلى اتخاذ موقف صارم من سياسة أمريكا العابثة .

● لا تزال الأحوال في تونس مضطربة ونشاط الأحرار يزداد ، وهذه الحوادث التي نسمع بها كل يوم في مدن تونس وقراها مظاهر حياة رائعة ندعو الله أن يباركها .

● لا يزال القتال مستعراً في كوريا والهند الصينية ، ولا تزال الثورات قائمة على الظلم في غينيا وجنوب أفريقيا وتونس وتنجانيقا .

● رفضت تركيا دعوة وزير خارجية باكستان إلى مؤتمر رؤساء الدول الإسلامية استناداً إلى أنها دولة ليس لها دين رسمي .

● أذاع الدكتور ملان رئيس وزراء حكومة جنوب أفريقيا حديثاً استنكر فيه القرار الذي سبق أن اتخذته بريطانيا بمنح مستعمرة ساحل الذهب الحكم الذاتي قائلاً « إن هذا القرار التمس حفر الشعوب في جميع أنحاء القارة الأفريقية إلى المطالبة بالاستقلال الذاتي » .

● في الخطاب الذي بعثه الامبراطور هيلاسيلاسي إلى بابا وبطريك الكرازة المرقسية في الإسكندرية وصف فيه الامبراطور نفسه بأنه « الأسد الخارج من سبط يهوذا هيلاسيلاسي الأول المختار من الله ملك ملوك أثيوبيا » .

● طبع القرآن الكريم في الأردن على طريقة بريل لتيسير تلاوته لمسكوف في البصر .

● هاجم المارشال تيتو في خطابه الأخير في مؤتمر الحزب الشيوعي اليوغوسلافي الدول الغربية وروسيا على السواء ودعا يوغوسلافيا لتأليف كتلة عالمية ثالثة .

● كتب أحد الملحقين الأميركيين في تأييده الجنرال ايزنهاور يقول : إن الولايات المتحدة ، بل العالم في حاجة إلى رئيس تكون الأخلاق الممتنة أبرز صفاته ، أما حاجة أمريكا فللمشاكل الداخلية الخطيرة ، وأما حاجة العالم إليه فلأن السنوات القلائق القادمة مليئة بالاحتمالات المخيفة التي لا يبدد من عنفها غير زعامة شريفة نظيفة تنقيد بالاعتبارات الأخلاقية أبعد حدود التقيد .

● عقدت اتفاقية عسكرية واقتصادية بين الولايات المتحدة وإسبانيا تقضي بإنشاء قواعد عسكرية في إسبانيا وتحويل ميناء قادش إلى قاعدة حربية من الطراز الأول .

● يلاحظ أن السلطات الأمريكية تنشط نشاطاً واضحاً في المجال الثقافي في بلاد الشرق الأوسط — وفي مصر على الخصوص — كما نشطت من قبل في المجال الاقتصادي .

● بالرغم مما ينشر في الصحف من احتفاء ارتريا بانضمامها للعبشة بأمر هيئة الأمم المتحدة تحت تاج هيلاسيلاسي إلا أنه قد وردت لنا تقارير تذهب إلى ضيق مسلمي أرتريا بهذا الضم وفزعهم من المستقبل الذي يتهددهم معتبرين بحالة مسلمي الحبشة .

● تحرص كثير من الصحف على نشر صور ملوك العرب أثناء لهوهم .

● لا تزال الأحزاب السياسية المعارضة في العراق مصرة على مقاطعة الانتخابات النيابية .

● صرح وزير الدفاع الأردني بأنه تقرر تدريب اللاجئين في فلسطين العربية وعددهم ٤٠٠ ألف تدريباً عسكرياً .

● تمت في الأسبوع الماضي مناورة كبرى قامت بها قوات الحلفاء في البحر المتوسط اشتركت فيها وحدات أمريكية وبريطانية وتركية وفرنسية ويونانية ، وكان ميدان المناورة الساحل التركي .

● لم يدرج الاعتماد الذي كان يخص القسم الصحافي العربية بهيئة اليونيسكو في ميزانية الهيئة لعام ١٩٥٣/٥٤ ومعنى ذلك الفاؤه بعد إنشائه بمدة سنة واحدة .

● اعتزم جون ملك سباق السفن في بريطانيا ضرب الرقم القياسي العالمي للسرعة في البحر فصنع سفينة نفائنة بلغت تكاليفها ١٥ ألف جنيه وسماها « كروسيدر Crusader » وهو الاسم الذي كان يطلق على جنود البابا في الحروب الصليبية ، ومن تمام الخبر أنه بعد أسبوع من نشره انفجرت السفينة بصاحبها في ظروف مجهولة .

مركز تحقيقات كميونير علوم إسلامي

آدم عليه السلام

رغب إلينا كثير من القراء أن تجمع مقالات فضيلة الأستاذ البهي الحولي في قصص القرآن في كتاب . وقد نقلنا إلى فضيلته هذه الرغبة السكرمة فلباها مشكوراً وأضاف إليها تحقيقات لم تنشر وفصولاً جديدة سيكون بها الكتاب الجديد عن أبي البشر سفيراً مشرقاً فريداً في المكتبة الإسلامية .

وقد جعل الاشتراك في الكتاب قبل طبعه ثمانية قروش مصرية ترسل إلى إحدى الجهات الآتية :

- ١ - المسلمون : ٣٢ شارع منيل الروضة : الأخ عبد الفتاح مكي .
- ٢ - المركز العام للاخوان المسلمين : ٢ ميدان الشهيد حسن البنا : الأخ محمد عمر .
- ٣ - الدعوة : ١٨ (١) شارع ضريح سعد .

والكتاب يوزع أنه يصدر فاصحز نسختك بالاشتراك فيرمين الآن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

محتويات هذا العدد

صفحة

١	لفضيلة الأستاذ حسن الهضيبي ...	هذا القرآن ...
٤	لفضيلة الأستاذ البهي الحولي ...	قصص القرآن : آدم عليه السلام ...
١٢	لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا ...	من علوم السنة ...
١٥	لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبي زهرة ...	غربة الإسلام ...
٢١	الأستاذ الدكتور محمد عبد الله العربي ...	الدستور الإسلامي ...
٣١	الأستاذ الدكتور محمد معروف الدواليبي ...	أسئلة حول الحق الطبيعي ...
٣٥	الأستاذ عبد القادر عوده ...	النشريع الجنائي الإسلامي ...
٣٩	أيها المخلفون : لا . . . الله لا الملك ...
٤٤	للأستاذ السيد محب الدين الخطيب ...	متى وكيف يقوم الحكم الإسلامي ؟ ...
٤٨	للأستاذ سيد قطب ...	المستقبل للإسلام ...
٥٤	للتحرير ...	خاطرة ...
٥٥	للأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى ...	الدين والمجتمع ...
٦٠	للأستاذ الدكتور محمد ضياء الدين الرئيس ...	النورة الوطنية الأولى ...
٦٦	للأستاذ المستشرق « ليوبولد فايس » ...	أصول حضارة الإسلام ...
٧٢	ندوتنا ...
٧٨	للأستاذ السيد أبي الأعلى المودودي ...	العوامل والمؤثرات التاريخية وراء نظام الرأسمالية ...
٨١	لفضيلة الأستاذ الشيخ مصطفى السباعي ...	لماذا حاربت القوميات الدين في أور ؟ ...
٨٥	للامام الشهيد الأستاذ حسن البنا ...	رأى في التصوف ...
٨٨	مع العارفين : أحمد بن حنبل ...
٩٣	للقاضي محمد محمود الزبيدي ...	صنعت يد الإله « شعر » ...
٩٦	للتحرير ...	الأرض المباكة فلسطين ...
١٠٠	للتحرير ...	في أفق العالم الإسلامي ...
١٠٤	الفهرس ...